ثمن الحرية

للثورات العربية

تأليف الأسير

شادي غالب محمد ياسين أبو شخدم الحسيني

سجن ريمون الصحراوي

الطبعة الأولى

١/٥/ ٢٠١٥م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف



بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

الإهداء

إلى من ثار على طغمة الحكام الظالمين، وإلى الذين زرعوا أزهار الحرية على أجسادهم ورووها بدمائهم وسني أعمارهم. إلى شهداء ومعتقلي وجرحى فلسطين الحبيبة.

وإلى والديّ والأهل والأصدقاء، كما أهدي هذا الكتاب إلى روح الشهيدة عندليب طقاطقة.

وإلى كل من ساهم في إخراجه من ظلمات الزنازين، إلى واقع الحياة ليتجسد كتاباً مقروءاً، أهدي هذا العمل المتواضع.

راجياً الله عز وجل النفع به للجميع، إنه نعم المولى ونعم النصير.

المؤلف

شادي غالب محمد أبو شخدم الحسيني

٢٠١٤/٢/٢٣م

شكر وتقدير

اتقدم بالشّكر والعرفان والتّقدير إلى كلّ من ساهم في إنجاز هذا العمل المتواضع، ممّن كان لهم فضل في تعليمي، وصقل ذاتي، ومن زودوني بالمعلومات والفكرة والنصيحة والمشورة، وإلى من قدّموا العون لي في أي مجال.

وإلى الشّهيد ميسرة أبو حمدية {أبو طارق}، الذي قدّم لي الكثير من النّصح والإرشاد، وهو في الاعتقال قبل استشهاده في السّجن، ومحمد ناصر كراجة {أبو ناصر }، و محمد حمدية، ورزق صلاح { أبو أحمد }، وأحمد خميس، ونصري عــطوان، ووائل أبو شخدم الحسيني، ومعتز الهيموني، وأمجد طقاطقة { أبو سماح }، وسلطان العنتير، وعمر عكاوي أبو ملك ، والصحافي زياد أبو صالح .

وإلى الأستاذ والمربي الفاضل صادق فخري نمر حسونة الحسيني الذي قام بتدقيقه لغوياً.

وإلى والدي غالب أبو شخدم الحسيني الذي له الفضل بعد الله في كلّ نجاح.

المؤلف

شادي أبو شخدم الحسيني

٢٠١٤/٢/٢٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، ناصر المستضعفين، ومذلّ الجبابرة المتكبرين، والصّلاة والسّلام على نبيّه المصطفى الأمين، وعلى آله الأطهار الميامين، وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد ....

لقد بدأت بكتابة هذا الكتاب بتاريخ ٢٠١١/٦/٣م، وأنتهيت من الكتابة فيه بتاريخ ٢٠١٣/٢/٢٠م، ولكني لم استطع اخراج الكتاب من السّجن إلا في ٢٠١٤/٢/٢٣م، ولقد صودرت مسودّة الكتاب عدّة مرات عند محاولات اخراجه من السّجن، حتى مكّنني الله من اخراجه، ولذلك لم أضف له إلا البعض اليسير حتى تاريخ اخراجه بسبب الظروف داخل السجن.

وقبل البدء في موضوع الكتاب، أحب أن أنوه لأمرٍ مهمّ جداً، ألا وهو أن هذا موضوع سياسي – أي بحث في واقع هذا الحراك وما يكتنفه – والبحث فيه قائم على هذا الأساس.

أما ما نحب أن تكون عليه حال الأمة، وما نرجوه، وندعو الله أن يحققه من هذا الحراك موضوع آخر، لا دخل لهذا البحث فيه، وهذا من

أسس البحث الصحيح، فلا بد من تجريد أنفسنا عند البحث من كل شيء، لكي لا يخرج البحث عن مساره السياسي ومعرفة الواقع الحقيقي.

فعلى القارئ الكريم مراعاة هذه الأمور، فمن هنا استطيع القول:

مع انفجار هذا البركان الهادر، الذي أشعل الأرض ناراً من تحت أقدام الطّغاة في وطننا العربي، الذي اجتاحه من أقصاه، بشرارةٍ أشعلها محمد البو عزيزي استذكرت اقتباسا لقصة قرأتها في رواية (تحت عين القمر) لمعتز الهيموني، تقول" أسر أصحاب سرك دغفلاً([1])، فأحكموا وثاقه بعامود خيمة، حاول هذا الدّغفل الهرب واقتلاع العامود، إلا أنه فشل ولم يستطع إلى ذلك سبيلاً، فاستسلم للأمر الواقع معلقاً عن محاولاته، ليقضي ردحاً من الزمان على ذلك الحال، فأصبح آلفاً لحياة البقاء في السرك ولسجنه الذي يؤويه، إلى أن جاءه عصفور فخاطبه قائلاً: ما الذي يجبرك على البقاء في هذا القيد؟ وأنت أكبرهم حجماً وأعظمهم قوة. فأجاب الفيل: حاولت في الماضي ولم أفلح، فرد العصفور لما لا تعيد الكرة، فأنت اليوم أكبر حجماً وأكثر قوة كما أخبرتك، أطرق الفيل مفكراً، ثم عزم على المحاولة مجدداً وما إن تحرك هذا الفيل حتى اقتلع العامود، هادماً الخيمة على رؤوس أصحابها.

فهذا الشّباب العربي الذي لم توقظه من سباته العميق، أنهار الدّماء النّازفة في فلسطين والعراق وأفغانستان والشّيشان، ولا الكرامات

---

[1] – الدغــفل : صغير الفيل.

المهدورة في سجن أبو غريب، ولا استغاثات المغتصبات في مواطن الظّلم والاستبداد، ولم يفق على أصوات الانفجارات والأموات في بيروت وبغداد وطرابلس وغزة ورام الله، بل كأنهم أموات في أجساد متحركة، إلا أنّ ذلك لم يكن سكون الأموات والموت، إنما الهدوء الذي سبق عواصف التّغيير العاتية، التي اقتلعت زعماء القمع والطغيان في تونس ومصر واليمن وليبيا، فيما زال أرنب سوريا – الأسد – يصارع على أمل النّجاة وأنّى له ذلك، فالشّعوب قالت كلمتها، ولا رجعة عنها.

إنّ هذا الحدث الذي عصف ببلادنا العربية واصطلح الإعلام على تسميته بالربيع العربي([1]) أسطورة لا تصدق، الأمر الذي فتح الباب على مصراعيه أمام موجات التّحليل والتّكهنات التي لم تكن أقل حدةٍ من عواصف التغيير، وفي قلاع([2]) الأسر كانت هذه التّكهنات والتّحليل والنّقاشات أكثر وأشدّ حدّة، لما تحتويه القلاع من تعدد الفصائل، وبالتالي تعدد في المشارب والأفكار والمنطلقات الفكرية لكل فصيل، مما يحتم على الأسير من صقل وعيه السّياسي، والذي تمارسه الأطر التّنظيمية، والتي يقع على عاتقها تثقيفه سياسياً، رغم صعوبة الواقع الذي نعيشه، وما يفرضه من حرمان وقمع.

---

[1] يعتبر البعض أنه من المبكر تسمية ما يجري في الوطن العربي بالربيع، حيث أننا لم نصل إلى جني الثمار ولم تستقر الأحوال بعد، ولذلك يرون أن هذه التسمية لا تصف الواقع.

[2] يطلق الأسرى الفلسطينيون على سجون الاحتلال مسمى القلاع بدلا من السجون.

هذه النّقاشات أوحت إلى صديقي الأسير المحرر الآن (نصري عطوان) تشجيعي على الكتابة في هذا الموضوع، الأمر الذي لاقى استحساناً لدي، فعزمت على الكتابة فيه رغم ما يواجه الأسير من عَقبات، ليس أقلّها شحّ المصادر، فالفضائيات المسموح لنا مشاهدتها لا تزيد عن عدد أصابع اليد الواحدة، وأعداد من جريدة القدس، ونافذة من الإذاعات المحلية التي تطلعنا على خلاصة ما ينشر في الإعلام بأشكاله المرئي والمسموع والمكتوب، على أن الاستماع إليها ليس متاحاً في كل وقت، كذلك صعوبة التواصل مع الخارج، وانعدام التقنيات من حواسيب أو طابعات وغيرها، مروراً بصعوبة إخراج المواد من داخل قلاع الأسر، وبعد الفترات الزمنية اللازمة لذلك، وصولاً إلى حالات عدم الاستقرار، بسبب حالة المواجه بين الأسير والسّجّان على مدار السّاعة، وما يواجه هذا الأسير من مصادرة لأي مادة مكتوبة تقع عليها يد السجان، وغير ذلك من الأساليب القمعية التي يعجز القلم عن وصفها، إلا أنّ الإرادة قد تغلبت على ظُلاَّمِها بخروج هذا العمل إلى النور، رغم أنف الحاقدين أعداء الإنسانية والحرية.

إن هذه الظروف التي ذكرت تجعلني أستميح القارئ عذراً عن أي نقص قد يعتري هذا العمل، لان الكمال لله وحده، ولن يبلغه إنسان على هذه البسيطة، على أنّ الأسير وهو في هذا الوضع ، وهذه الظروف يكون في ذلك أكثر احتمالا، لهذا أرجو أن يتجاوز القارئ عن زلاتي، وان يهيئ الله لي هذا العمل لأكمله.

لقد ارتأيت أن أقسّم هذا العمل إلى ثمانية أبواب، بيد أنني مهّدت له بتوطئة استعرضت خلالها بشكل موجز أهم محطات هذا العمل، وأسميت الباب الأول بـــ (ماضٍ باهظ الثمن) يَعرضُ بشكل مختصر واقع وطننا العربي منذ الحملة الفرنسية إلى اتفاقية (سايكس بيكو) مركّزاً على دور أطماع الدّول الاستعمارية، ثم باب بعنوان (الانفجار العظيم) يطرح شرارة الأحداث في كلّ بلد، وبسرعة انهيار أجهزه القمع، وأخر بعنوان (خلف الكواليس) يبحث في اللاعبين على ساحة الربيع العربي، والرابع بعنوان (دموع التماسيح) يتحدث عن الأسباب الحقيقية للتدخلات الخارجية، ثم باب (ثورة السّلطة الرّابعة) يدور موضوع بحثه حول الإعلام بكلّ أشكاله ودوره، والسادس بعنوان(جني الثّمار) يبحث إلى ما آلت إليه الأمور وإلى يد من وصلت، والسابع عن (الثمن المطلوب دفعه مقابل الحرية) بعنوان (الثمن) واختتمته بالباب الثامن تحت عنوان (قبسٌ من نور) طرحت فيه بارقة الأمل التي ترنوا إليها الأمّة وبزوغ ذلك النور.

أرجو الله العلي القدير، أن أكون قد وفقت في ذلك، والله ولي التوفيق والحمد لله رب العالمين.

المؤلف

شادي أبو شخدم الحسيني

٢٠١٤/٢/٢٣م

توطئة

مع فاتحة هذا القرن، انطلقت انتفاضة الأقصى المباركة، تعلن رفض الفلسطيني إملاءات الإدارة الأمريكية وإسرائيل من تسوية سياسية، لا تُلَبي الحد الأدنى من طموحاتهم، ليكون بذلك الشعب الفلسطيني، من طليعة من رفض المشروع الغربي للمنطقة الهادف إلى السيطرة عليها سياسياً واقتصادياً، وثقافياً، بكل وسيلة متاحة، وصولاً إلى استخدام القوة لقمع أية مقاومة تظهر سواء من خلال الشرطي المتمثل بإسرائيل، أو بنفسه، على أن الدور في فلسطين كان لشرطيه، فما أن خرجت المظاهرات مستنكرة حتى جوبهت بالقمع.

أقدم رئيس المعارضة الإسرائيلية في العام(٢٠٠٠م) (أرئيل شارون) على تدنيس باحات المسجد الأقصى، وما لذلك من دلالات بالغة الخطورة، فخرجت حشود من الجماهير الغاضبة رداً على هذا العمل، حتى فوجئ شعبنا العظيم بقمع غير مسبوق من خلال استخدام الذخيرة الحية في تفريق المظاهرات السلمية، أملاً في إخافة الجموع وترويعهم، وما إعدام الطفل الشهيد محمد الدرّة، على مرأى ومسمع العالم أجمع ، وعلى الهواء مباشرة، إلا دليل على هذه السياسة، وتمهيد للإخضاع القيادة السياسية، وإجبارها على الخضوع، والقبول بشروط سلامهم المزعوم بل شروط استسلامنا، لكنّ المفاجأة المدوية كانت بِرَدّ الفلسطينيين على هذا القمع بمزيد من الإصرار والصمود والتحدي، ليجسّد هذا الشّعب المعطاء صورا

من الدفاع الأسطوري عن الحرية والكرامة العربية، وليسجل العالم بل ليصور أسطورتنا الكبرى متمثلة بصورة الطفل الشهيد (فارس عودة) يقف أمام دبابة الماركافا، بصدره العاري إلا من الإيمان بحرية شعبه، بحجر أمام أحدث الدبابات في كسر لمعنويات جيش الاحتلال الجبان، صورة انتشرت في وسائل الإعلام انتشار النار في الهشيم، وأصبح(فارس عودة) رمز الصمود والتحدي،وكسر حواجز الخوف، هذه الصورة لم تكن الوحيدة، فصور الاستشهاديين الذين يقدمون على تفجير أجسادهم، وقد رموا أرواحهم رخيصة في سبيل تحقيق الحرية لشعبهم وأمتهم بممارستهم لواجب الجهاد المقدس، وإن إقدام الفتيات وهن في ريعان صباهن على ممارسة هذا الواجب كان له وقع اكبر في نفوس المشاهد العربي، ورسّخ لديهم قناعة مفادها أن الخوف لم يعد حائلاً أمام الوصول إلى الحرية والاستقلال، واسترداد الحقوق المغتصبة.

كانت هذه الصور ترد تباعاً إلى وسائل الإعلام فيما هناك صورة أخرى ترتسم في عقول الشباب العربي، بعدم قدرتهم على تخطي حواجز الخوف التي وضعتها أنظمتهم أمام استرداد حريتهم وكرامتهم، الأمر الذي جعل كرة الثلج تتدحرج وتكبر دون انتباه، حتى خرقت الأُطر عن مساراتها وانفجرت ثورة، لم يعد بمقدور أحد السيطرة عليها أو اخمادها.

ما كادت هذه الانتفاضة أن تتمم عامها الأول، حتى وقع حدث فاجأ العالم بأسره، طائرتان تصطدمان ببرجي التجارة العالمية، وأخرى

بمبنى البنتاغون في الولايات المتحدة الأمريكية، ليكشف أن الهجوم من تخطيط وتنفيذ وتنظيم القاعدة، لتأخذ أمريكا من ذلك مبررا، لتنفيذ سياستها في المنطقة، بعد أن شعرت أن هناك حالة من التمرّد لا بدّ من احتوائها، وهذه المرة بنفسها، كزعيمة للمشروع الغربي الذي ساندها، بتشكيل تحالف دولي قام بمهاجمة أفغانستان، في عملية أطلق عليها (الأنا كندا)(١)، في إطار ما سمي بالحرب على الإرهاب(٢) في محاولة لإسكات الأصوات المتمردة والقضاء عليها، والوقوف في وجه أية محاولة لتغيير الواقع المرير من التبعية وعدم التأثير، بل وغياب القدرة على صناعة الإحداث، وكأن الأمة أصبحت في موقع العبد التابع للعم سام، وهذا يتطلب من أمريكا إخضاع المتمردين، الذين يشكلون أي نواة تهدف إلى تغيير قواعد اللعبة.

وبما أن العراق كان أحد هؤلاء المتمردين المتجسد بنظامه البعثي، وقائده صدام حسين، فكان الهدف التالي لتحالف الغرب بقيادة الولايات المتحدة، فبعد ما أصبح العراق القوة العربية ولا مبالغة إذا قلنا الإقليمية، الأكثر خطراً على إسرائيل وبالتالي المشروع الغربي برمته، صار لزاماً على أميركا وحلفائها التعامل مع هذا الخطر وإنهائه، فبعد خديعة امتلاك العراق للسلاح النووي، أو سعيه إلى ذلك، جاء دور تصوير العراق كحليف

---

[١] هي اسم أفعى ضخمة قاتلة (الأضخم بين أبناء جنسها)

[٢] لتعريف الإرهاب راجع الموسوعة السياسية – الجزء الأول – للدكتور عبد الوهاب الكيالي دار الهدى. تصف الولايات المتحدة أعمال المقاومة في فلسطين بالإرهاب في ما تغض النظر عن ارهاب الدولة الذي تمارسه دولة الاحتلال الإسرائيلي بل وتدافع عنه في زيادة واضحة.

لتنظيم القاعدة والمشارك له مع الأخذ بعين الاعتبار إننا نتحدث عن طرفي نقيض، يكاد يكون من المحال نظرياً حدوثه، لكن السياسة لا تعرف المستحيل، على أن الأمر هنا لم يستند إلى حقائق، وهذا ما أثبتته جلسات المساءلة في الكونغرس الأمريكي نفسه.

بهذه الأكاذيب وتحت شعار نشر مبادئ الحرية والديمقراطية، احتلت جيوش التحالف الغربي العاصمة العراقية بغداد، في أقل من(٢٢) يوماً على بدء الحرب([١]).

وقام أحد الجنود المارينز برفع العلم الأمريكي على أحد تماثيل صدام في وسط العاصمة معيداً ذكرى دخول الجيش البريطاني، إلى المنطقة تحت نفس الشعار، وبنفس الأهداف قبيل تقسيم الوطن العربي، وكأن التاريخ يعيد نفسه، وألقي القبض على الرئيس العراقي في عملية أطلق عليها الجيش الأميركي (الفجر الأحمر)، وبعد محاكمة صوريّة دامت لعامين أعدم صدام صباح عيد الأضحى(٢٠٠٦/١٢/٣١م)([٢])، وبذلك كانت نهاية نظام متمرد أخر بمقاييس أميركا وحلفائها.

تصورت إسرائيل في خضم هذه الأحداث أن دورها في المنطقة أصبح في خطر، فما عاد الغرب يرى فيها الحارس الأمين لمصالحه، فكان لا

---

[١] **بدأت الحرب فجر ٢٠ / آذار وسقطت في ٩ نيسان لعام ٢٠٠٣م**

[٢] **تم إعدام صدام حسين فجر يوم عيد الأضحى (العاشر من ذو الحجة) الموافق ٢٠٠٦/١٢/٣٠م وقد تم تسليمه للحكومة العراقية من قبل الاحتلال الأمريكي تلافياً لجدل قانوني بأمريكا التي اعتبرته أسير حرب.**

بدّ من إعادة الثقة لهذا الشّرطي، والذي يعتبر نفسه جزءاً من المشروع الغربي، بل ويعلم جيداً أن بقاءه متوقف على استمرار ونجاح دوره في هذا المشروع، فكان لبنان مسرح الحدث، فبعـد قيام حزب الله بتنفيذ عملية اختطاف لجنديين على الحدود في الأغوار الشمالية لعام(٢٠٠٦ م)، بهدف تحرير أسراه الذين ترفض إسرائيل الإفراج عنهم، وعلى رأسهم سمير القنطار، والذي كان قد أمضى حتى حينها أكثر من ربع قرن داخل الأسر([١])، أعلنت إسرائيل الحرب على لبنان، متذرعة بهذه العملية لشنّ عدوان غير مسبوق على الجنوب اللبناني والضاحية الجنوبية للعاصمة بيروت، بهدف القضاء على حزب الله ذراع إيران في المنطقة، بمنظور أميركا وحلفائها، ليكون رسالة إلى إيران وسوريا مفادها، أن كلمة ثمنها هذه المرّة الإعدام سياسياً وجسدياً، وفي تناغم وتأييد واضحين، وتبني لهذا النّهج، تخرج علينا وزيرة الخارجية الأمريكية آنذاك كندليزا رايس بخطابها الشهير الذي وصفت خلاله آلام الموت الذي زرع في لبنان، وصور أشلاء الأطفال، وقتل النساء والشيوخ، وأنهار الدّم، وآلاف بل عشرات آلاف البيوت المدمرة، إن ذلك كلّه إنّما هو (مخاض ميلاد الشرق الأوسط الجديد)([٢]) ولم يعلم أحد

---

[١] مع أن الهدف المعلن للعملية هو تحرير الأسرى ، وأن إسرائيل أشعلت الحرب بحجة استعادة الجنود المختطفين إلا أنه لا يمكن الإغفال أن حقيقة الصراع هو بين إيران الساعية إلى نقل المعركة إلى أبواب تل أبيب وإسرائيل الساعية إلى بقائها على أبواب طهران .

[٢] الشرق الأوسط : وصف جغرافي يطلق على مصر وإيران والجزر العربية والعراق وليبيا والسودان والهند وباكستان وأفغانستان ودول الشرق الأدنى (في بعض الأحيان) المنجد – طبعة ٢٨ دار المشرق بيروت.

ماهية هذا المولد؟ ولماذا يحتاج ميلاده كل هذه الدماء وهذا الدمار؟ وعما إذا كان هذا المولود مُصغراً عن الأصل كما هي العادة؟

إلا أن السّحر انقلب على السّاحر، أرادت إسرائيل هجوماً سريعاً خاطفاً من أجل جملة أهداف ليس أقلّها إظهار قوّات الرّدع الإسرائيلية، هذا (البُعبُع) المتواجد على حدود أربع دول عربية، ويستطيع بمدى نيرانه الوصول إلى كلّ دول المنطقة دون استثناء، واستعادة دورها كشرطي للمشروع الغربي في المنطقة، وما أرادته إسرائيل كذلك، تحّول إلى كابوس، قضّ مضاجعها وحلفاءها، مع أنّ أمريكا أعطت إسرائيل المهلة تلو الأخرى، ودعمتها بالعتاد اللّازم لإنجاز مهمتها، وعملت أيضاً على تأخير صدور أيّ قرار في مجلس الأمن بهذا الخصوص، حيث إسرائيل فشلت في ذلك بل استغرقت (٣٣) يوماً للخروج بحفظ ماء الوجه ولو إعلامياً، فوافقت على وقف إطلاق النار استناداً إلى قرار مجلس الأمن (رقم ١٧٠١) وذلك تحت ضغط استهداف الجبهة الداخلية من حزب الله، الأمر الذي أعاق الوصول إلى الهدف المنشود من إبراز قدرة إسرائيل على حماية المصالح الغربية، وعلى النقيض من ذلك اشترطت إسرائيل استقدام ثلاثة ألاف جندي من القوات الدولية بإشراف الأمم المتحدة – عرفت باسم اليونيفيل – لحماية حدودها مع لبنان، وبذلك بدت بعد هذه الحرب كالشرطي العاجز عن أداء واجبه، وعلى

يهدف الغرب بإطلاقه سياسياً كبديل للمسمى الحقيقي (الوطن العربي) إلى إظهار إسرائيل كيان طبيعي في المنطقة بما أن الشرق الأوسط يضم عرقيات غير عربية كالفرس والأتراك وغيرهم – وهذا غير متاح فيما لو بقي. على المسمى الأول.

العكس يحتاج إلى الحماية المباشرة، وفي خضمّ هذه الأحداث، طلّ على العالم خطر جديد، تمثل بأزمة قروض العقارات، وما خلّفته من اضطراب في النظام المصرفي وصولاً إلى أزمة ماليّة عصفت بأمريكا لتعبر سريعاً إلى أوروبا ،ثم أصقاع الأرض بسرعة أذهلت الخبراء الاقتصاديين، ولولا تدخل الحكومات بضخّ مليارات الدولارات في بنوكها، لانهار النّظام الاقتصاديّ العالميّ بين ليلة وضحاها، واللّافت للنّظر أن الدّول العربية كانت الأقل تأثراً بهذه الأزمة – أي أقل تأثر مباشرا([1])– وكانت الأقدر على معالجة آثارها والتّخلص منها، نظراً لسياستها المالية، وعزا بعض الخبراء في الاقتصاد ذلك إلى النّظام المالي والاقتصادي الإسلامي، المطبق في دول الخليج، وإن كان بأقل صورة، فهل أدى ذلك إلى إثارة القلق الذي يستوجب إتباع استراتيجيات تعيد ترتيب أوراق المنطقة من جديد؟ وهل يمكن فهم تصريح وزيرة الخارجية الأمريكية هاري كلينتون؟ والذي قالت فيه (إن منطقة الشرق الأوسط قد تشهد اضطرابات في الفترة القادمة([2]) والذي جاء قبل أسابيع على اندلاع عواصف التغيير!!

ترافق ذلك مع صراع محموم بين السلطات الحاكمة في وطننا العربي وأحزابه المعارضة التي استخدمت العنف في محاولة تغيير الواقع

---

[1] قدّر بعض الاقتصاديين خسارة الدول العربية بسب الأزمة ب ٢ترليون دولار من قيمة أموالها التي أودعت في البنوك الغربية ، ليشكل هذا المبلغ جزءا من آلية حل هذه الأزمة .

[2] دأبت وكالة الاستخبارات الأمريكية (C . I .A) على إصدار توقعاتها حول سير الأمور في المناطق الساحلية بناء على تقرير عملائها ، ثم تقوم بصياغة تصوراتها لوضع احتمالات تطور ، تضعها أمام صنّاع القرار .

بعد فشل الأساليب السلميّة في ذلك، الأمر الذي واجهته الحكومات باتباع سياسة القمع ومصادرة الحريّات والإطباق على وسائل الإعلام بكل إشكالها، ناهيك عن ارتفاع معدلات البطالة([1]) والفقر([2])والأميّة([3])، وانخفاض الإنفاق الحكوميّ على التنمية([4]) الاقتصاديّة والأبحاث التطويريّة، والغياب التام للتّداول السّلمي للسلطة، فقد كانت الوسيلة الوحيدة المتاحة للوصول إلى الحكم، هي النّجاح بالقيام بانقلاب عسكري([5])، الأمر الذي أدى إلى حلول دكتاتوريّة بإمكانيّة أخرى، بالإضافة إلى استشراء المحسوبية – الواسطة- وتغلغل الفساد وذلك التزاوج بين رأس المال والسّلطة، إلى غير ذلك من الأمور التي أوصلت الوضع إلى حافة الانفجار.

---

[1] راجع باب (خلف الكواليس) من هذا الكتاب صفحة٥١

[2] راجع باب (خلف الكواليس) من هذا الكتاب صفحة٥١

[3] راجع باب (خلف الكواليس) من هذا الكتاب صفحة٥١

[4] راجع باب (خلف الكواليس) من هذا الكتاب صفحة٥١

[5] فقد وصل الضباط الأحرار إلى الحكم في مصر بالانقلاب عام ١٩٥٢م وحزب البعث في سوريا عام ١٩٦٣م والعراق عام ١٩٦٨م حيث انقلبوا على نظام الحكم، وفي اليمن والسودان، بينما انقلب جعفر النميري عام ١٩٦٩م وموريتانيا عام ١٩٨٥م، وقد وقعت سلسلة انقلابات سابقاً وحديثاً، وهذه أمثلة على هذه الطريق للوصول إلى الحكم .

الباب الأول

ماضي باهظ الثمن

لا يوجد في العالم منطقة تجمع من المميزات الجّغرافيّة والاقتصاديّة والدّينيّة والسياسيّة، أكثر مما يجمعه الوطن العربي الّذي وهبه الله لهذه المنطقة، مما جعله ساحة للصّراع بين القوى والأقطاب الدّوليّة على مرّ العصور، فجغرافياً يعتبر الوطن العربي قلب العالم، والرابط بين أجزائه عبر ممراته، البريّة والجويّة والبحريّة، فبريّاً هو الممر الوحيد إلى قارّة أفريقيا عبر فلسطين، كما يعتبر الطّريق الأقصر الرابط بين أوروبا وآسيا عبر تركيّا، والتي تقع على حدود سوريا والعراق.

وبحريّاً يعتبر مضيق باب المندب وقناة السويس، الطريقان البحريان الأمثلان الرابطان بين البحر الأبيض المتوسط وبحر العرب، مما يغنى دول أوروبا عن المرور بمضيق جبل طارق والمحيط الأطلسي، بدل الالتفاف عن طريق المحيط الهندي إلى الرّجاء الصالح، بالتّالي عدم المخاطرة عبر قطع تلك المسافة.

وأما جوّاً يعتبر الوطن العربي محطّة استراحة مثاليّة وآمنه، للخطوط الجويّة العالميّة الطوليّة، التي لن تستطيع قطع المسافة بين طرفي مسارها بشكل مباشر.

أما دينيّاً فيعتبر الوطن العربي مهد الدّيانات الثّلاثة، اليهوديّة التي انطلقت من مصر، والمسيحيّة التي انطلقت من أرض فلسطين، والإسلاميّة التي انطلقت من بلاد الحجاز، الأمر الذي ميّزه على المناطق الأخرى بقدسيته لأتباع الدّيانات الثّلاث لوجود الأماكن المقدّسة لكلّ الدّيانات، وجعل البعد الديني حاضراً وبقوة في هذه البقعة من العالم، فكان محركاً للعديد من الحروب.

واقتصادياً يعتبر الوطن العربي خزّان النّفط الأكبر في العالم ، إذ تتربع المملكة العربيّة السعوديّة على عرش العالم بمخزون يقدر بـــ ٢٥٨,٦ مليار برميل، والعراق في المرتبة الثالثة بمخزون يقدر بـــ ٩٩,٨ مليار برميل ،والكويت المرتبة الخامسة بمخزون يقدر بـــ ٩٢,٤ مليار برميل، والإمارات في المرتبة السادسة بـــ ٦٤,٧ مليار برميل، وليبيا في المرتبة التاسعة بـــ ٣٨,١ مليار برميل([١])، هذه النّسب غير الموارد الأخرى من الغاز وغيرها، بالإضافة إلى كون الوطن العربي سوق استهلاكي من الدرجة الأولى، مما يعني زيادة الفائدة الموجودة اقتصاديّاً.

وسياسيّاً فالوطن العربي يشكّل رمزيّة سياسيّة ذات قيمة بالغة الأهمية ،حيث أنّ الّذي يسيطر على هذه المنطقة يعتبر الأجدر على قيادة العالم، هذا بالإضافة إلى المكاسب الأخرى التي سيحققها من خلال الاستفادة من

---

[١] كنز المعلومات . محمد عبد العزيز الهيلاوي – دار الطلائع.

امتيازات هذه المنطقة، الأمر الذي جعل الوطن العربي محط اهتمام قوى الغرب.

مع نهاية القرن الثامن عشر بدأت هذه الأطماع بالظّهور، مستغلين انشغال القوات العثمانيّة بإخماد الثورات في اليونان والبلقان، والعزف على أوتار مكامن الضعف والخلل، فعلى سبيل المثال، قام نابليون بونابرت بتوزيع منشورات على أهالي الإسكندرية يوم دخلها بهدف احتلالها ،قال فيها:(إنه جاء ليحرر المسلمين من ظلم المماليك)، وأطلق على نفسه اسم (علي بونابرت باشا)، واضعاً العمّة على رأسه([1]) فقام البريطانيين بكشف حقيقة نابليون، بهدف إفشال مخططه الذي شكّل خطراً على طرق مواصلاتها إلى الهند، فوقعت المنطقة في حينها بصراع محموم بين هاتين الدّولتين، واللتانِ لم تكن أي منهما توليان أهمية لمصالح السكان فيها، إلّا من خلال الشّعارات التي ترفعها، بغية تسويق نفسها كصديق لا عدو.

لذلك رفعت شعارات، لا للظّلم والفساد، ومصادرة الحرّيّات والحقوق، هذا أهم ما حاولت الدّول الغربية استغلالها من أجل القضاء على الأنظمة الحاكمة في تلك الحقبة، في عهد العثمانيين والمماليك، ولإنجاح هذه العملية وإحداث الأثر المطلوب، استخدمت دول الغرب جامعاتها([2]) التي

---

[1] كان ذلك أثناء الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨م.

[2] كان هذا الدور معاكس للدور الذي لعبته جامعتنا الإسلامية التي كان له الأثر الأكبر في نهضة الغرب الذي كان يقبع في الظلام في العصور الوسطى

استقبلت ثُلة من شباب العرب، من أجل تغذية فكرة القوميّة، التي لعبت دوراً هاماً وبارزاً في القضاء على الوجود العثماني في المنطقة.

مع بدايات القرن التاسع عشر، انطلقت أصوات نادت بضرورة استعادة العرب للخلافة التي صادرها العثمانيون الأتراك، لتعزّز هذا الشعور لدى العرب من خلال الإجراءات التي اتخذها العثمانيون بما عُرف بمصطلح (التتريك) أي بفرض اللّغة التركيّة والثقافة التركيّة على العرب، بالإضافة إلى جعل المناصب السياسيّة في الدّولة في يد الأتراك، وإعطاء مساحات شاسعة من الأراضي الأميرية([1])، لملك الأتراك مما أوجد نظاماً إقطاعيًّا، وكان له الأثر في نفوس العرب، وكان لذلك أثراً مدمراً على المنطقة.

وتوافق ذلك مع غياب كبير للعمليّة التعليميّة وترسيخ سياسة التجهيل، وغياب أكبر للتنميّة الاقتصاديّة، وتفشي البطالة، واتساع المحسوبيات والواسطة، واستشراء الفساد والرشاوى([2])، مما أدى إلى فقدان العرب الثقة بالنظام الحاكم، ولتبدأ رحلة البحث عن حلول تعالج الوضع، فبدأت أصوات تنادي بضرورة الإصلاح والتغيير، وعندما صمت السلطات آذانها أمام هذه المطالب، بدأت المطالبة بالاستقلال، وإنشاء إمارة عربية، إلى أن وصل الأمر بالبعض بالمطالبة بضرورة استرجاع الخلافة من العثمانيين وإعادتها إلى أصحابها الشرعيين أي لعرب، وتصورت السلطات

---

[1] الأراضي الأميرية : وهي الأراضي التي وضعت تحت تصرف الدولة فأصبحت ملكاً لها.

[2] راجع طبائع الاستبداد ومصانع الاستعباد – عبد الرحمن الكواكبي.

أن الأمر لا يتعدى كونه مؤامرة على الإسلام مما دفعها إلى استخدام أقصى أشكال القمع والقوة لإنهاء هذا التوجه والقضاء عليه، فقوبلت هذه الإجراءات بمزيد من الإصرار. استغل الغرب هذه الظروف، وصمم نظاماً استثنائيّاً وبشكل سرّي للغاية يهدف إلى تقسيم الوطن العربي بشكل خاص ومناطق نفوذ الدولة العثمانية بشكل عام كحلّ للمسألة الشرقية[١]، فيما عرف باتفاقية (سايكس بيكو) على اسم مُصَمميها، وهذان المخططان وزيرا الخارجية لكل من بريطانيا مارك سايكس وفرنسا جورج بيكو والذي قامت الثورة بكشفه عام ١٩١٧م بعد عام واحد على وضعة في ١٩/٣/١٩١٦م والذي سنتطرق إلى ركائزه لاحقا.

ولتنفيذ هذا المخطط كثّفت بريطانيا اتصالاتها بالشّريف حسين بهدف تشجيعه على التمرّد على السّلطة العثمانيّة، وبالفعل آتت هذه الجهود أكلها، فقد اتفقت بريطانيا مع الشريف حسين على الانطلاق بثورة ضد العثمانيين، سميت بالثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦م، على أن تساعد بريطانيا العرب في إقامة إمارة عربية تشمل بلاد الحجاز والعراق وسوريا الكبرى (فلسطين ولبنان وسوريا والأردن) ،حالما ينجح الشّريف حسين في الثّورة، وقد غلّفت بريطانيا وفرنسا ذلك بشعار الرغبة في تحرير الشعوب العربيّة من نير الاحتلال التركيّ حسب منظورهم، وقد صدّق العرب ذلك،

---

[١] المسألة الشرقية: مصطلح أطلق على عملية البحث عن كيفية تقسيم أملاك تركيا التي لقبت بالرجل المريض.

لينطلق الشّريف بثورته من بلاد الحجاز إلى العراق فالأردن وسوريا وصولاً إلى فلسطين، وكلّ ذلك بمساعدة بريطانيا مباشرة، وبقيادة الضّابط البريطاني (توماس لورنس) الذي لقّب بلورنس العرب، وتمكّنت قوّات الشّريف حسين بالدّخول إلى فلسطين بقيادة الجنرال البريطاني (أدمون اللنبي)، وإنّ هذا لهو خير دليلٍ على ما سعــت له كلا الدولتين. وما أن حقّق العرب أهداف البريطانيين والفرنسيين حتى فوجئوا بنكث هذه الدول بوعــودها، فما كاد العرب ليستفيقوا من ضربة كشف اتفاقية (سايكس بيكو)، والتي وقف وراء كشفها أبناء الثورة البلشفية، حتى تلقوا ضربة ثانية تمثلت بوعــد بلفور المشؤوم ، الذي وعــد فيه وزير الخارجيّة البريطاني بإقامة وطن قوميّ لليهود في ١٩١٧/١١/٢م، على أرض فلسطين[١] واتبعوها بثالثة قاضية من خلال إعلان الانتداب على فلسطين وسوريا ولبنان والعراق.

فما كان حلم إمارة عربيّة كبرى قارب بلوغ غايته، بسيطرة الهاشميين على بلاد الحجاز والعراق وسوريا والأردن وفلسطين – ولكن أصبحت إمارة ضعيفة وصغيرة وفقيرة –، فيما باتت تسمى المملكة الأردنية الهاشمية فآل سعود سيطروا على بلاد الحجاز، وطردوا الهاشميين منها، وأعلنوا مملكتهم على حدود ما يُعرف اليوم بالمملكة العربيّة السعوديّة عام ١٩٢٤م، وفرنسا قامت باحتلال سوريا ولبنان بحجة وضعهم تحت الانتداب الفرنسي عام ١٩٢٠م، وطرد الملك فيصل منها، وبريطانيا قامت باحتلال

---

[١] للاطلاع على نص وعد بلفور راجع الموسوعة السياسية – الجزء الأول – عبد الوهاب الكيالي مدار الهدى.

فلسطين والعراق ووضعتهم تحت الانتداب البريطاني عام ١٩٢٣م، بالإضافة إلى أمارة شرق الأردن، لتنهار بذلك أحلام العرب وتتكسر طموحاتهم على صخرة الأكاذيب الغربية، ووعودهم المتضاربة، وأطماعهم في المنطقة.

هذه المطامع اتخذت شكلاً آخر، أعتمد على دعم زعماء بعض القبائل في دول الخليج العربيّ، وتنصيبهم أمراء، مقابل إعطاء بريطانيا امتيازات اقتصاديّة وقانونيّة، فعلى سبيل المثال، ظل البريطانيون لا يخضعون لسلطة أو قانون في دولة البحرين حتى عام ١٩٥٧م([1])، بالإضافة إلى فرض عدم طلب الحماية إلا من بريطانيا، وعم هذا الحال عموم دول الخليج العربي، وإن كانت حدة الشروط تشتد أحياناً وتقل في أحياناً أخرى. وإذا كان هذا حال الدول العربية، في القسم الآسيوي في الوطن العربي، لم يكن حال شقيقاتها في القسم الإفريقي بأفضل حالاً، فمصر وقعت ضحيّة التّنافس الاستعماريّ البريطانيّ الفرنسيّ على المنطقة، فبريطانيا تسعى لحماية طرق مواصلاتها إلى مستعمراتها في الهند، فتناوبت على احتلالها بشكل مباشر كما في الأعوام ١٨٠١م – ١٨٠٧م وغيرها من السنوات، أو حكمتها من خلال عملائها، مثل المملوكي محمد الألفي، وفرنسا تسعى إلى السّيطرة على هذه الطريق بهدف تحقيق مكاسب، بالإضافة إلى انتفاعها بميّزات هذه المنطقة الاستراتيجيّة، فأقدمت على احتلالها بصورة مباشرة عام ١٧٩٨م، وحكمها أيضاً عبر عملائها، أمثال عثمان البراديسي وإبراهيم

---

[1] الموسوعة السياسية – الجزء الأول – عبد الوهاب الكيالي– دار الهدى.

بيك – من المماليك – على أن بريطانيا أولت أهميّة خاصّة للسودان، أما فرنسا فقد امتدت أطماعها إلى بلاد المغرب العربي، فعندما تراكمت الدّيون الفرنسيّة المستحقّة للجزائر على فرنسا، وعـــدم تسديد أيّ من هذه الديون للجزائر، تصاعدت حدة الخلافات بين الدولتين، والتي أججها القنصل الفرنسي (بيبر ديفال)، وفي اجتماع بين هذا القنصل والداي في ١٨٢٧/٤/٢٧م اشتد الخلاف بينهما، فقام الداي بإلقاء مروحته اليدويّة على القنصل، فاعتبرت فرنسا ذلك إهانة لها، لتتّخذ ذلك ذريعةً لبدء التخطيط لاحتلال الجزائر، وذلك للتّخلص من الدّيون، فشنّت حملةً إعلاميةً لتسويق هذا التّصرف، وفي ١٨٣٠/٦/١٤م قامت فرنسا بإنزال ٢٧ ألف جندي على أرض الجزائر، لم تكتف فرنسا بالجزائر، بل تحينت الفرصة لاحتلال تونس، فتذرعـــت بالخلاف على ترسيم الحدود، بالإضافة إلى اتهامها الباي التونسي بعدم العمل على منع تسلل المقاتلين الوطنيين الجزائريين، وتقديم المساعدة لهم ، فحسمت الموقف عسكرياً لتعـــلن عن تونس محمية فرنسية عام ١٨٨١م، والمغرب عام ١٩١٢م، وموريتانيا ، فهبت كلّ من ايطاليا واسبانيا لاقتطاع حصتها من الوطن العربي، لتحتل إيطاليا ليبيا بين عامي ١٩١١م – ١٩١٢م والصومال، ولتحتل اسبانيا الصّحراء المغربيّة والريف المغربيّ.

وبذلك أصبح شكل الوطن العربيّ الممزّق بين القوى الاستعماريّة على الشّكل التالي:

فاستولت بريطانيا على العراق والأردن وفلسطين والبحرين والإمارات وقطر وسلطنة عُمان واليمن([1]) ومصر والسودان وجزء من الصومال.

واستولت فرنسا على سوريا ولبنان وتونس والجزائر والجزء الأكبر من المغرب وموريتانيا وجيبوتي([2]) وجزر القمر.

واستولت إيطاليا على ليبيا والجزء الأكبر من الصومال.

واستولت اسبانيا على الرّيف المغربيّ والصحراء المغربيّة.

وبذلك يكون الوطن العربي قد رزح تحت الاستعمار الغربيّ المباشر باستثناء المملكة العربية السعودية والكويت.

وقد أدركت هذه الدّول الغربيّة أن الاحتلال المباشر للدول، لن يصلح على المدى الطويل ، ولذلك لجأت إلى أسلوب جعــل من أقطار الوطن العربي تابعاً وخادماً وحارساً لمصالح هذه الدول الاستعمارية، وذلك بإنشاء أنظمة حكم مرتبط وجودها بما يخدم مصالحها، والحرص على إبقائها على سدّة الحكم، فبريطانيا أبقت على سلالات محمد علي على سدة الحكم في مصر منذ إعلان انفصالها عن الدّولة العثمانيّة عام ١٨٤٩م، ودخولهم تحت الحماية البريطانيّة، إلى أن قام الضّبّاط الأحرار بالانقلاب على الملك فاروق،

[1] إن الجزء الذي وقع تحت الاحتلال هو اليمن الجنوبي ، وذلك قبل توحده مجدداً.

[2] جيبوتي : كانت جزء من الصومال وقد اشتهرت (بالصومال الفرنسي).

وإعلان الثّورة عام ١٩٥٢م، وأبقت فرنسا على حكم بايات([1]) تونس منذ احتلالها عام ١٨٨١م، إلى استقلالها عام ١٩٥٧م، مع أن بعض البايات كانت لهم مواقف وطنية مشرفة، أمثال الباي محمّد ناصر، والباي محمّد المنصف، إلّا أنّ هؤلاء كانوا الاستثناء، وقد أشيع أنّه تمّ تصفيتهم على خلفية مواقفهم هذه، كما أبقى الاحتلال على السّلالة العلويّة الحاكمة في المغرب، والتي اعتلت العرش سنة١٦٦٦م ،وهي لا زالت تحكم حتى يومنا هذا.

والسّلاح الأهم في ضمان تبعيّة هذه الأنظمة، تمثّل بالإغراق بالدّيون واقتراض قروض بفوائد ماليّة باهظة ومركبة، الأمر الذي يؤدّي إلى عجز النّظام الحاكم عن سداد هذه الدّيون، فيتضاعــف ويزداد ، مما يتيح للدّول الدّائنة إمكانيّة التّدخل أولا بالشّؤون الاقتصاديّة للبلد، ثم السّياسّة الخارجيّة، فالداخليّة وصولاً إلى الاحتلال ، وإعلان الوصاية والحماية وغيرها من المسميات التي تتيح للدّول الاستعماريّة استغلال الشعوب ومقدراتها، ومما ساهم في نجاح هذه السياسة، - إغراق الحكام بالملذّات والكماليات بالإضافة إلى الفساد والمحسوبيّة، وعدم إعطاء القروض للمشاريع الإنتاجيّة الناجحة -، لأن ذلك قد يؤثّر على مخططات المستعمر، ويشكل خطراً على مصالحه.

---

[1] كان يطلق على حكام تونس إلى ما قبل الاستقلال (باي) والجزائر (داي) وهما رتب في الجيش.

إنّ الهدف الأهم الذي سعى الاستعمار من أجل تحقيقه، تجسّد بالعمل على منع أيّ إمكانية لحدوث وحدة عربيّة، حتى لا تشكل خطراً حقيقيّا، وتهديداً لمصالحه، وانطلاقاً من الاستراتيجيّة كانت ركائز اتفاق تقاسم الوطن العربي بين القوى الاستعماريّة الأقوى في القرن العشرين بريطانيا وفرنسا من خلال اتفاقية (سايس بيكو) عام ١٩١٦م، ووعد بلفور عام ١٩١٧م ، واللذان وضعا لتحقيق هذا الهدف أمور عدّة أهمّها :-

١- دول ذات تعداد سكّاني كبير، وموارد اقتصادية ضئيلة، وبذلك تبقى بحاجة الغرب لإطعام شعوبها، فعلى سبيل المثال تتلقى([1]) مصر معونة سنوية من الولايات المتحدة تقدر بـــ ٢,٢مليار دولار سنوياً ، والأردن بمليار دولار أيضاً.

٢- دول ذات موارد اقتصاديّة ضخمة، وتعداد سكّاني ضئيل، وبذلك تبقى بحاجة الغرب لحمايتها، فالكويت([2]) احتُلَتْ من قبل العراق خلال خمس ساعات، فتحركت الجيوش الأمريكية([3]) لإنقاذ الكويت على رأس تحالف دولي، بهدف حماية دول الخليج عموماً، -خزان النفط الأهم-.

---

[1] الخزان البشري الأكبر في الوطن العربي ، والذي يصل إلى أكثر من ٩٢ مليون نسمة.

[2] لا يتعدى سكان الكويت ٢,٥ مليون نسمة ، وفي البحرين ٦٥٦ ألف نسمة، والإمارات ٢,٥ مليون نسمة.

[3] تعتبر الولايات المتحدة الوريث الاستعماري منذ نهاية الحرب العالمية الثانية بلا منازع.

٣- ترسيم الحدود بين أقطار الوطن العربي، بطريقة تمنع من احتمال توحدها من خلال إنشاء مناطق متنازع عليها، كما الحال مثلاً بين قطر بجزر قم، وإيران والجزائر وتونس واليمن والسعودية ومصر وليبيا، واقتطاع لواء الإسكندرونة من سوريا، وإلحاقه بتركيّا بهدف ضرب العلاقة العربيّة التركيّة، وتقسيم الأكراد بين أربع دول هي تركيا وسوريا والعراق وإيران بهدف ضرب العلاقة بين الإيرانيين والعرب، وهؤلاء هم ركن القوة الإسلاميّة المعوّل عليها، هذا بالإضافة إلى أنّ أيّ اتّحاد بين أيّ من هذه الدّول سيشكل تهديداً للدّول الغربيّة ، الأمر الذي سيشعل حرباً لا هوادة فيها.

٤-دعم حكم الأقليات للأغلبيّة، مثل العلويّة في سوريا ، والتي تشكل ١٥% وتحكم الأكثريّة السّنيّة التي تشكل ٦٠%، وفي البحرين أقليّة سنّيّة تشكل ٤٠% للأغلبية الشيعية ٥٠% ، والنّصارى في لبنان تحكم المسلمين الأكثريّة ، بحيث يكون الرئيس ماروني، والعراق على مدار عقود من الزمن قبل أن يتغير ذلك بعامل القوّة الاستعماريّة التي أطاحت بحكم البعثيين عام ٢٠٠٣م، لأن وجوده في الحكم يتضارب مع مخططاتها ومصالحها، وفي دول الخليج وليبيا واليمن دُعِمَ حكم القبيلة الواحدة في الدّولة أو الإمارة، إن هذا التوجه في دعم الأقليات كرّس غياباً تاماً لممارسة الفعل السياسي، وجعله بيد الطّغمة الحاكمة، وشبكة مصالحها التي تقاطعت مع مصالح المستعمر، مما أدّى إلى تضارب مصالح كلّ قطر عربي. ومصالح الأقطار

الأخرى، وبالتّالي تمنع من توحّدهم ([1])، وللتأكيد على الهدف من هذه الخطّة الاستعماريّة، يقول ريتشارد نيكسون الرئيس السابق للولايات المتحدة بين عامي (١٩٦٩- ١٩٧٤م) مقتبس من كتابه ما وراء السّلام:

{{لقد شكّلت مصالحنا انطباعا فاعلاً على العالم الإسلاميّ كأن كشكولاً من العرب المعتوهين غير حليقي الذّقون، والفُرس سليلي القرون الوسطى، هذا الخليط فوق ذلك يشكّل أسرة شديد التعاون قوامها ٨٥٨ مليون نسمة، موزّعة على ٩٠ جماعة وعرقية، تسيطر هذه البلدان على معظم نفط العالم، وفي العقود القادمة ستمتلك قوة تجاريّة استثنائيّة، ثم تمتلك أقوى الجيوش، ولذلك فإنّها ستشكل تهديداً خطيراً لنا، ولذلك يجب إثارة المشاكل لكلّ هذه البلدان}}.

وبهدف قطع الطّريق عن أي احتمال لحدوث وحدة عربيّة، وبتحالف صهيونيّ إمبرياليّ واستناد إلى وعد بلفور، قرّر الغرب زرع إسرائيل الغريبة - دينيّاً وعرقيّاً وثقافيّاً- مشروعاً في فلسطين باعتبارها المنطقة الأمثل لمثل هذا الهدف، لأنّها الامتداد البريّ الوحيد الواصل بين الأقطار العربيّة الواقعة في القسم الآسيوي من وطننا العربي، وبتلك الواقعة في القسم الإفريقيّ منه، وهم بذلك يحققون هدفا آخر أيضاً، يتمثل بتخلصهم من يهود الذين يشكلون عبئاً على الاقتصاد باعتبارهم من أصحاب رؤوس الأموال، والمتحكمين في كثير من الأحيان بالسّوق الأمريكيّة التجاريّة، هذا

---

[1] حول أسباب تخوف الغرب من الوحدة العربية راجع كتاب العرب واليهود والتاريخ – أحمد سوسة.

بالإضافة إلى عدم اندماجهم في المجتمعات الغربيّة([1])، ولذلك كان اليهود هم الأقدر على تنفيذ أهداف الاستعمار، إذ صوروا يهود كشعب بلا وطن، واخذ الغرب على عاتقه حماية يهود (إسرائيل) وتفوّقها النوعيّ، وعن ذلك يقول ريتشارد نيكسون في كتاب ما وراء السلام: {{ ولقد زرعــت مصالحنا متجسدة في حماية إسرائيل، الواقعة بين البلدان العربيّة والإسلاميّة}} إذ هذه الركائز والمنطلقات شكّلت جوهر التعامل مع منطقتنا من قبل الغرب المتمثل بالدولة الاستعمارية، والذي يسعى وبشكل محموم للسيطرة على هذه البقعة من العالم بكل الوسائل.

[1] وهذا ما أطلق عليه المفكرون العرب مصطلح (المسألة الغربية).

الباب الثاني

الانفجار العظيم

إنّ أكثر أحلام المواطن العربيّ تفاؤلاً – والتي لن يستطيع البوح بها– أن يرى أن الاحتجاج الذي يقوم به مواطن سيغيير مجرى الأحداث في المنطقة وأنّه قد يزحزح وزيراً عن كرسيه أو حتى من هو أدنى مرتبة منه، إلا أنّ ما جرى في الواقع كان أعظم من ذلك، فقد حطّم مثل هذا الاحتجاج أصنام العرب الجدد، والتي عبّر عنها البعض منذ أكثر من أربعين عاماً.

لقد كان محمد البو عزيزي من مدينة سيد بو زيد التونسية، يعمل ويعتاش من خلال عَربة لبيع الخضار، رغم محدوديّة الدّخل التي كانت تدره عليه، إلا أنّ شغف الحياة والبطالة الوافرة في وسط الشّباب، أجبره على هذا العمل المتواضع، بيد أنّه لم يَسلمْ من عبث الشرطة ، والتي دَأبت على مصادرة عَربَتهِ منه، ليبدأ رحلة استرجاعها، اعتاد محمد على التّعرض للصّلف من رجال النّظام، الذين يضيقون عليه لقمة العيش، رغم صعوبتها وشحّها، وفي هذه المرّة وبعد مصادرة مصدر رزقه الوحيد، ذهب محمد إلى مقر المحافظة في السيد بو زيد بهدف استرجاعها، ثم غادرها غاضباً، ولم يعلم أحد عن نيته، فقام صباح يوم الجمعة ٢٠١١/١٢/١٧م، وأثناء الازدحام الذي تضج به شوارع المحافظة، بسكب البنزين على جسده وأضرم النّار بنفسه، مما أدى إلى إصابته بحروق قاتلة في أنحاء جسده نقل على

أثرها إلى المستشفى ، وذلك احتجاجا على المعاملة المهينة التي تلقاها على يد موظفة تدعى (فادية حمدي) والتي تبلغ من العمر ٣٦عاماً، وما أشيع في حينها أنّها صفعته، إلا أن المحكمة التي رفعت أمامها القضية عقب اندلاع الثّورة برّأتها مما نسب إليها، وهناك جاء لزيارته الرئيس التونسي {زين العابدين بن علي} إلا أن محمد فارق الحياة متأثراً بالحروق البليغة التي أصيب بها، وهو لا يعلم أنّه أشعل بشرارته التي أطلقها، عاصفة هوجاء من الاحتجاجات في الوطن العربي فاقتلعت أنظمة من جذورها، وهدمت أصنام السلطة والحكم.

لقد كانت هذه الحالة من التّمرد التي يحلم بها الكثير من الشّباب العربيّ ، الذي صودرت منه أبسط حقوقه، من المشاركة في الحياة السياسيّة ،وضرورة حريّة التّعبير في اختيار ممثّلين حقيقيين عنه، إلى العيش بكرامة وعــزّة، بل وصل الأمر بأنظمة الظلم والطغيان من التّحكم بطاقات الأمة وإمكاناتها- هذه الفئة الأكثر أهميّة لأي أمة أو مجتمع- وتسخيرها بما يخدم هذه الأنظمة لا فيما يخدم الأمة وتطلعاتها بل بما يخدمه، إن محمد البو عزيزي عندما أقدم على إحراق نفسه، أراد أن يوصل رسالة مفادها، أنّ الموت بكل ما تعنيه هذه الكلمة من آلآم وقسوة ومرارة ، أضحت أرحم من قسوة ومرارة الحياة المذلّة الخانعة، والتي لم يعد استمرارها على هذا الحال يشكّل أي معنى. بما أن الاحتجاج ممنوع، والصّوت غير مسموع ، والسّجن بانتظار من يفكر بالتّمرد على هذا الذّل والخنوع أو أن رصاصة تنتظر من اعتقد نفسه أسدا جسورا ، وبما أنّ النّاس غير مستعدين لدفع ضريبة

الحريّة والتّغيير، وجد محمد ضالّته بهذا التعريف الذي أفزع كل من شاهده، سواء اتفق مع محمد أم لم يتفق ، ليشعل ثورة عارمة امتدت إلى كلّ ضمير حيّ.

فمصر المشابهة في حالها حدّ التّماثل، هبّت فيها عاصفة التّغيير، وإن كان السّبب غير الذي كان في تونس، فخالد سعيد طالب جامعي من الإسكندرية، تواجد في مقهى للإنترنت ، ثم دخل مخبران([١]) من جهاز أمن الدّولة. المعروف ببطشه وجبروته([٢]).- ويطلبان منه مرافقتهما إلى الخارج، فيوقفانه في شمس تمّوز الحارقة – للعام ٢٠١٠م- ويقومان بضربه على مرأى ومسمع من المّارة، حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة، ولم يحرك ذلك ضمائر المتواجدين- وإنّ النّظام اعتقد ذلك ، وكان محقّاً في ذلك على المدى المنظور- فجلّ ما حدث احتجاجات ليست ذات قيمة، استطاع الأمن المصريّ القضاء عليها كما هي العادة، إلا أنّ هناك من أسس موقعا على

---

[١] ذكرت قناة العربية أن أحمد صلاح وعوض أنهما قيد المحاكمة -العربية ٢٤/ ٩/ ٢٠١١م.

[٢] دليل آخر على وحشية هذا الجهاز القمعي ظهر عقب تفجير كنيسة في الإسكندرية في رأس سنة ٢٠١١م حيث استدعى فرع الجهاز في الإسكندرية الشاب. (سيد بلال) من خلال الاتصال به عبر جواله، وطلب منه مراجعة المقر، ذهب سيد إلى هناك ولم يخرج إلا جثة ، لم يصمد جسده أمام وحشية التعذيب الذي مورس عليه أثناء التحقيق بغية انتزاع اعتراف بعلاقته بالتفجير، وقد أثبتت التحقيقات التي تلت نجاح الثورة وحل الجهاز، إن هذا الاشتباه لم يستند إلى أي أساس قانوني، أو منطقي إنما فقط بني على انتماء هذا الشاب إلى التيار السلفي – جريدة القدس. وبعد تسلم محمد مرسي {{بعد ذلك تبين أن وزير الداخلية العدلي هو وراء هذا التفجير}}.

الإنترنت حمل عنوان كلنا خالد سعيد، على أنّ البركان كان يغلي ويستعد للانفجار، لينبعث دخانه على شكل دعوات للتظاهر في عيد الشرطة المصريّ يوم ٢٠١١/١/٢٥م.

ولم يكن الوضع في ليبيا أقل قسوة ، ففي عام ١٩٩٦م قامت الشرطة الليبية بقتل أكثر من (١٢٠٠) سجين في سجن أبو سليم – أكبر سجن سياسي في ليبيا – لقد فقد الأهالي آثار أبنائهم، وأنكر النظام في حينه ما أُشيع عن المجزرة الرّهيبة، إلى أن خرج سيف الإسلام – نجل معمر القذافي – وأقر بوقوع مجزرة، معلناً عن نيّة والده محاسبة المسؤولين المرتكبين لهذا الفعل الذي يندى له الجبين، وطالت هذه المحاكمات التي بدأت عقب هذا الاعتراف عام ٢٠٠٢م ،ولم تخرج بنتيجة حتى العام ٢٠١١م، الأمر الذي دفع أهالي الضحايا في بنغازي – وبما أن أبناءهم شكلوا العدد الأكبر من السجناء المغدورين _ إلى التظاهر أملاً من اسماع أصواتهم وتحقيق العدالة والقصاص من المجرمين، وليس أقل من استلام رفات أبنائهم لدفنها في مقابر معروفة تمكّنهم من زيارتها وقراءة الفاتحة على أرواحهم.

وضمّت المظاهرات المحامي الشاب فتحي تربل ، الذي تولّى قضيّة الدّفاع عن الأهالي في مجزرة سجن أبو سليم التي ارتكبها نظام معمر القذافي، الأمر الذي أدى إلى اعتقاله، وبتسرب نبأ الاعتقال تفجّر بركان الغضب يوم ٢٠١١/٢/١٧م.

وأما الحال الأشد قتامة كان في سوريا، حيث بدأت مجموعة من المثقفين الشباب ، بتظاهرة مرخّصة في شوارع دمشق، سرعان ما تحوّلت إلى هتافات مطالبة بالإصلاح وعلى إثر ذلك، وبتأثير مما تبثه الفضائيات العربية، قامت مجموعة من تلاميذ المدارس في محافظة درعا ، بكتابة شعارات على بعض الجدران مستوحاة مما شاهدوه على شاشات التلفاز، وسمعوه من حناجر الثوار في تونس ومصر وليبيا، فكتبوا الشّعب يريد إسقاط النظام، فتقدمت جحافل الأذرع الأمنيّة باتجاه المحافظة، وقامت باعتقالهم، معتقدة أنّهم شركاء في مؤامرة ضدّ أسدهم، فعذّبوهم أثناء التحقيق معهم، وآثار التعذيب بادية على أجسادهم الغضّة، في رسالة كتبت على أجساد هؤلاء الأطفال مفادها، هذا مصير كلّ من يقف في وجه النّظام، أو حتى يفكر في ذلك، وعندما ذهب أهل هؤلاء الأطفال للمطالبة بالإفراج عن أبنائهم، قام ضبّاط النّظام بالتلفّظ بألفاظ نابية وغير أخلاقية بحقّهم وحقّ نسائهم، هذا التّصرف أثار حفيظة أصحاب الضّمائر الحيّة في المحافظة الأكثر تمسكاً بالعادات والتقاليد والدين في درعا، حيث خرجت بمظاهرات تعبيراً عن استنكارهم لهذه الجريمة وهذه الإهانة، وسخطهم على هذا النّظام الذي يعذب الأطفال ويسيء للأخلاق، ويقمع صوت من يقول لا، لتندلع النّار في بلاد الشّام.

هذه الشّرارات نماذج لما يجري في المنطقة، والناظر لها يرى أنها، وإن اختلفت في التوقيت والمكان والشخوص والتفاصيل، إلا أنها تشاركت من خلال:-

١- أنّ الذي أدى إلى انفجار الأوضاع، حادث مفزع هزّ وجدان الشّارع وأصحاب الضّمائر الحية، وإن منفّذ هذا الحادث كان أركان النّظام بأجهزته البوليسيّة القمعيّة.

٢- إنّ من وقع عليهم الظّلم، مواطنون عاديّون لا ينتمون إلى أيّ حزب أو جهة معارضة، الأمر الذي أشعر الجماهير في هذه الدّول، أنّ أجهزة النّظام وبعد فراغها من المعارضة والمعارضين، تفرغت لهم، وأنّ المسألة مسألة وقت.

٣-إنّ أسباب ودوافع هذا الظّلم لم تكن ذات أبعاد أو خلفيات جنائيّة أو أمنيّة أو طائفيّة.

٤- إنّ الذين تجاوبوا مع الدّعوات للتّظاهر، كما أنّ الداعين لها ، كانوا مواطنين غير مؤطّرين ، ولا ينضوون تحت راية حزب أو تنظيم، وأنّ من كان عضوا في أيّ حزب أو حركة، تحرّك من تلقاء نفسه، وليس بتعليمات من قيادته، أي أنّ الشعب هو الذي تحرّك بكلّ ما لهذه الكلمة من معنى.

إذاً كانت الشّرارة على اختلاف مشاربها قد أَشعلت الأرض بركاناً ملتهباً، فإنّ أكثر ما أثار الاستغراب، سرعة فقدان السّيطرة من قبيل محافل الأجهزة الأمنيّة والشرطيّة، والتي طالما صوّرت نفسها من خلال استعراضاتها المتكرّرة، بحصن لا يمكن اختراقه، وجدار نار يحرق من يتجرأ على الاقتراب منه أو من قصور سلطانه.

وإنّها قادرة على أن تحصي أنفاس كل مواطن وتسترق السمع إلى كلّ همساته، وأنّها ذلك (البعبع) الذي ينتظر من يتذمر، فهي الأسد الزائر في وجه من يفكّر في الاحتجاج، على أنّه يوجد فرق كبير بين أن ترى نمراً أو صورة نمر، فنمور الأجهزة القمعيّة العربيّة بانت على حقيقتها، وظهرت بصورة (نمر من الورق)([1]).

فما أن بدأت الجماهير العربيّة بالتّحرّك حتى انهارت جيوش مكافحة الشّغب، بل قل جيوش مكافحة الشّعب، وتكميم الأفواه في أكثر من قطر عربي، ففي تونس وبعد أن شاع خبر إقدام محمد البو عزيزي على إحراق نفسه احتجاجاً على مصادرة مصدر رزقه، حتى اندلعت مظاهرات ضخمة بدأت في محافظة بو زيد وامتدت تدريجياً إلى كل المدن والمحافظات التونسية فلم تصمد أجهزة الشّرطة لأيام معدودات، وليعلن الرّئيس التّونسي حالة الطوارئ في كافّة أنحاء البلد، ويطلب من الجّيش النّزول إلى الشّارع([2]) لفرض السّيطرة عليه، وذلك قبل فراره في ٢٠١١/١/١٤م معلناً بذلك سقوط النّظام الأمني الذي دام لأكثر من ٢٢عاماً لتوقن الجّماهير أنّ هذه الأجهزة أنها هي أسودٌ من كرتون، وأن إرادة الشّعوب أقدر من كلّ أنظمة العهر والقمع.

---

[1] كما قال زعيم الثورة الصينية ماوسيتنغ في وصف أعداء الثورة .

[2] إنّ مهمّة الجيش في الأصل حماية حدود البلد من أيّ عدوان خارجيّ ، لكن القانون يسمح بنزوله إلى المدن إذا فشلت الشرطة وأجهزة الأمن في السّيطرة على الوضع ، فانتقلت مهمة الحفاظ على الأمن للجيش بشكل مؤقت.

شاهد النّظام المصري رحيل نظام بن علي القمعي، فلم يعتبر، ففي مؤتمر صحفي ردّ وزير الخارجيّة المصريّ، أحمد أبو الغيط، على سؤال أحد الصّحفيين الذي أذيع على قناة العربيّة الإخباريّة، عما إذا كان ما حدث في تونس قد تمتد آثاره إلى مصر، وخصوصاً أنّ هناك دعوات على الفيس بوك للتّظاهر في يوم عيد الشّرطة، كان ردّه أنّ ما حدث في تونس إنّما هو زوبعة في فنجان ، وأنّ الوضع في مصر مختلف تماماً.

كان تصوّر أبي الغيط مستنداً في قرارة نفسه إلى أكثر من ٤٠ ألف جندي، فما يسمى بالأمن المركزي، وطابور من المخبرين وأجهزة أمن الدولة المنتشرين في كلّ زاوية من مصر، ونسي أن الشعب إذا قال كلمته، أسقط كل أوهام وأصنام الرّعب، وحطّم قيود الصّمت مسمعاً كلمة الحسم، التي لم تتأخر طويلاً، ففي يوم الثّلاثاء ٢٠١١/١/٢٥م، وبناءً على دعوات للتظاهر أطلقت على الإنترنت، مطالبةً باستغلال عيد الشّرطة في مصر، انطلقت تظاهرات بأعداد غفيرة من الجماهير، فاجأت الأمن المصري، وتجمعت في وسط القاهرة مطالبة بحرية التعبير، والعدالة الاجتماعية، ومحاربة الفساد، ووقف الممارسات القمعية للأجهزة الأمنية، التي ذهب ضحيتها الكثير، كعادتها استدعـيت أجهزة مكافحة الشّغب المتمثلة بقوات الأمن المركزي، وبدأت بتفريق المتظاهرين ، الذين تضاعف عددهم بشكل لم تشهده مصر في تاريخها من قبل، ومع هذا التزايد في الاستجابة لدعوة التظاهر، ازداد استخدام القوة مما أسفر عن سقوط العديد من الشهداء والجرحى، خلال هذه المصادمات التي دامت حتى ساعات المساء، ظنّت

السلطات أن الأمر قد انقضى، وأنّ الزّوبعة قد انتهت، لتفاجأ في اليومين التاليين ٢٦-٢٧/١/٢٠١١م بازدياد أعداد المشاركين، رغم زيادة حدة البطش والقتل والقمع، وسياسة الاعتقال لكلّ من يشتبه بكونه مشارك أو منسق لهذه التظاهرات، ومما ميّز هذين اليومين اتساع المشاركة لتعمّ المدن المصرية، على أن أشدّها كان في الإسكندرية ، وأدناها كان في السويس التي شهدت سقوط أكبر عدد من الشّهداء والجرحى، ليخرج الرّئيس المصري حسني مبارك عن صمته أخيراً، ويلقي خطابًا يخبر خلاله الشّعب بقبول حُكمهِ أو انتظار الفوضى -وهذا تهديد منه للشعب- وهذا أدى بدوره إلى تصاعـد المظاهرات، وارتفاع سقف المطالب التي ركزت على ما سبق من المطالب ، بالإضافة إلى المطالبة بالإصلاح السّياسيّ والاجتماعيّ - التزوير في آخر انتخابات لمجلس الشعب والشورى([1])- وغيرها من المطالب بالحقوق السّلبية، وعلى أثر استمرار المظاهرات وتناميها والاستجابة لها من قبل الشّعب، ورغم القمع والبطش، وفي محاولة يائسة من النظام لوقف تدهور الأوضاع، قرّرت حكومة أحمد نظيف قطع جميع أشكال الاتصالات الداخلية والخارجية، السّلكية واللاسلكية بالإضافة لقطع الإنترنت، على أنّ ذلك لم يفتت من عضد الجماهير التي تحررت من كل أشكال الخوف، كما كسرت هذا الحاجز المقيت، وفي صباح يوم الجمعة ٢٨/١/٢٠١١م وبسبب تأجج المشاعـر اتجاه قوات الأمن التي قتلت العديد

---

[1] حيث حصل الحزب الحاكم في مصر على أكثر من ٩٠% من المقاعد وغياب كل الأحزاب الأخرى، أما عدد الطعون التي قدمت على الانتخابات عام ٢٠١٠م وصل إلى ١٥٢٧ طعناً.

من المتظاهرين واعتقلت عدداً آخر، مما أدى إلى اشتداد الصّدمات بين المتظاهرين وقوى الأمن المركزي، حيث سقط في ذلك اليوم في ميادين القاهرة وحدها أكثر من ٢٥٠ شهيداً، قام عدد من الغاضبين بمهاجمة مراكز الشّرطة ، وقوى الأمن الأخرى ومراكز الحزب الوطني – الحزب الحاكم– ،واحرقها باعتبارها رمز القمع والاستبداد بالحكم، وفي ساعات المساء أعلن الرئيس المصري حسني مبارك حظر التجوال، وأمر الجيش بالنزول للشوارع بعد غياب مفاجئ لقوات الأمن المركزي، الأمر الذي طرح علامات استفهام كبيرة على أنّ ذلك أكد سقوط أسود الكرتون، التي أرهبت الشعوب لعشرات السنين، عبر أول اختبار حقيقي لها، لقد اكتشفت الجماهير كم هي ضعيفة جحافل الأمن المركزي، رمز السطوة والقمع تنهار خلال ثلاثة أيام أمام هذا ((التيار الجارف –التسونامي–)) من الجماهير التي قرّرت التّمرد على خوفها، واعتزمت قول كلمة الفصل، ولتأخذ زمام المبادرة بالدفاع عن حقوقها التي اغتصبها زمرة عبّاد السلطة والمال. فها هي إمبراطورية النّظام الأمني الأكثر قوّة في المنطقة، اليد الحديديّة، تنصهر بنار الجماهير الغاضبة، رغم اعتبار النّظام الأمني المصري الأكثر بوليسية في المنطقة، فقد وصلت النّسبة العـدديّة لأفراد الأمن بكلّ فروعه إلى ١٤ فرد لكلّ ٢٥ مواطن، لكن كلّ ذلك اختفى ، وبدأت الجماهير بالاعتصام في ميدان التحرير، والعديد من الميادين الأخرى في عموم مصر ورفعـت هذه الجماهير الغاضبة الشّعار الشّهير {{الشّعب يريد اسقاط النّظام}}.

وفي ليبيا ما إن وصل نبأ اعتقال المحامي الشّاب فتحي تربل، حتى اندلعت مظاهرات في بنغازي، وما هي إلا ساعات حتى انهارت الأجهزة الشّرطية هناك، وسيطر المتظاهرون على المدينة بشكل أثار استغراب كل من شاهد هذه التّحركات، وطلب الرّئيس الليبي معمّر القذافي من الجيش العمل على استعادة المدينة والسّيطرة على الأوضاع.

وفي سوريا لم يكن وضع هذه النّمور بأفضل حال، فما أن تسرّب نبأ اعتقال وتعذيب التّلاميذ الأطفال، حتى اندلعت موجة احتجاجات في درعا سرعان ما امتدت إلى أكثر المدن السّورية، وما هي إلا ساعات حتى طلب الرّئيس بشار الأسد من الجيش الاستعداد لحسم الموقف في المناطق السّاخنة.

وفي اليمن لم يكن هناك دورٌ لجهاز الشرطة، حيث اندلعت المظاهرات في العاصمة صنعاء احتجاجاً على عودة الرئيس اليمني علي عبد الله صالح عن وعــده بعدم الترشح لفترة إضافية، وبدأ الشّباب اليمني بالاعتصام في الميادين العامة حتى أمر الرّئيس علي عبد الله صالح الجيش بالتّدخل لحسم الأمر معتمداً على أقاربه الذين يمسكون بمفاصل القوات المسلحة اليمنية، إلا إن فرقة من الجيش انشقت ، وأعلنت انضمامها إلى صفوف الثورة.

وفي البحرين قام الملك بإعلان حالة الطوارئ في أنحاء المملكة، وطلب من الجيش إنهاء حالة التّمرد، إلا أن الجيش أيضاً فشل في إخماد

الثورة ، بعد فشل الشّرطة من قبل في ذلك، فانعقد مجلس التّعاون الخليجي ([1])، وقرّر إرسال قوات درع الجزيرة – الخليجي المشترك ومن ضمنهم الجيش السّعودي – الذي تحرّك على الفور، وأزال دوار اللؤلؤة ميدان الاحتجاجات وسواه بالأرض وقضى على الثّورة في مهدها. ولكن ما زال هناك بين الفينة والأخرى تحرك من الشّعب ضدّ النّظام.

إنّ هذه الأحداث تطرح سؤالٌ بالغ الأهمية، وهو لماذا انهارت الأجهزة الشّرطية ، وقوات مكافحة الشّغب، والأجهزة الأمنية عند أول اختبار حقيقي لها؟؟

الإجابة تكمن في أنّ هذه الأجهزة بُنِيَتْ على أساس فكرة مفادها، أنّ الشعب هو العدو الأول لها، وكثيراً ما يسمع المتدرب المنتسب إلى هذه الأجهزة قول [[إنّ الشّعب كالزّنبرك المضغوط عليه]] {{يجب إبقاء قدمك عليه لأنّك إذا رفعتها أصاب عينك}} إنّ هذه التعبئة ضدّ الشّعب تترافق مع أخرى قائمة على أساس أنّ الملك هو الوطن، وإن أيّ مساس به يعني المساس بالوطن، وأنّ حماية النّظام من عبث الخونة المتربصين والمندسين في صفوف الشّعب هو الواجب الأول والمقدس له، حتى وصل الأمر بوزير الدّاخلية المصريّ إبان حكم مبارك حبيب العدلي، بأن قرّر تغيير الشّعار الذي رفعته الوزارة طوال عقود ((الشرطة في خدمة الشعب))غيّرته إلى

---

[1] يتكون مجلس التعاون الخليجي من كلٍ من السعودية والإمارات والكويت وقطر والبحرين وعُمان.

((الشّرطة والشّعب في خدمة الوطن)) بالطّبع فإنّ هذا الشّعار يحمل من المعاني والسّمو في الفهم والإدراك ما جعله أفضل من سابقة ومتفوّق عليه، لو أنّ القصد منه الوطن بمعناه الحقيقي، لا أن يكون معنى الوطن كما يفهمه هؤلاء، فالوطن في نظر العدليّ وأمثاله، هو وتلك الطّغمة الحاكمة وأجهزتها ووزراؤها وأعوانها وعلى رأس كل هؤلاء الحكام وأبنائه وأسرته.

لذلك نرى أنّ هذه التّعبئة، قد انعكست على أداء هذه الأجهزة، الأمر الذي جعل الهدف الأول للمنتسب إليها، هي الفائدة المادية المرجوة بالإضافة إلى الفوائد المعنوية، بما كان يوفره النّظام من امتيازات لأعوانه المتربعون على عرش الأجهزة، وأصحاب المراتب العليا، الذين أثبتوا ولاءهم للنّظام، ليكون ذلك على حساب علاقة هذه الأجهزة مع الجماهير، التي تناسبت تناسباً عكسياً ، حيث كلّما ازداد الفرد من الجهاز الأمني اقتراباً من النّظام علت رتبته وبالتالي ازداد بعداً عن الجماهير، وهذا الأمر أحدث فجوة في العلاقة بين الأجهزة والجماهير، وأخذت هذه الفجوة في الاتساع بسبب ازدياد شبكة المصالح والمنافع بين ابن الجهاز والنظام، حتى أعمت المسؤول عن حقيقة عمله ومسؤولياته، فبدل السّهر على أمن المواطن والسّعي إلى الرّقي به إلى مصافّ الأمم، أصبح عمله يتلخص بمتابعة كلّ همسة يهمسها المواطن، أو كلّ انتقاد يوجهه للسلطة الحاكمة، وإسكاته بكلّ الوسائل من ترغيب وترهيب، كما يقال {إنّ شرّ البليّة ما يضحك} ، فقد أمضى سجين سوري أكثر من ١٤ عاماً في السّجون السّورية بتهمة الانتماء إلى جماعة الإخوان المسلمين المحظورة في سوريا، إبان المواجهة

التي دارت بين نظام حافظ الأسد وجماعة الإخوان المسلمين (((ليتبين بعد قضاء هذا المواطن كل هذه السنين أنه مسيحي الديانة، وأن السّبب وراء اعتقاله هو قوله :- إنّ حاكم البلاد حمار مهمته خدمة شعبة وحمله إلى بر الأمان)))([1]).

ومن الطّبيعي أن ينظر الشّعب إلى هذه الأجهزة كعدو مبادلاً هذه الأجهزة نظرتها، وأن يعمل على الحدّ من التعامل معها قدر الإمكان، وفقط عندما يكون مجبراً على ذلك، بل والسّعي إلى التّخلص منها في أول فرصة قد تتاح له، لذلك ليس من المستغرب أن تكون المقارّ الأمنية والأجهزة عرضة للتخريب والحرق، وكيف أنّ أفرادها كانوا هدفاً للانتقام من قبل الجماهير الغاضبة، وهذا لا يمكن إغفاله، وهو بالغ الأهمية في هذا المضمار، حيث أنّ الغالبية السّاحقة من أبناء ومنتسبي هذه الأجهزة، هم من الطّبقات الفقيرة والمتوسطة التي يقع عليها ظلم النّظام وأجهزته، إنّ ابن الجهاز هو ابن الشّعب، ويمتلك حسّاً وطنياً صادقاً، طالما لم ينخرط في شبكة المصالح والمنافع، ولم يتدرّج في المراتب، هذا الحسّ الوطنيّ يجعل ابن الجهاز الأمنيّ ينحاز إلى جانب الشّعب وسرعان ما يلفظ النّظام إذا ترسخت لديه القناعة بزوال النّظام، فهذا ما شاهدناه في الكثير من المواقف، حيث رفض أفراد من الشّرطة والأجهزة إطلاق النار على المتظاهرين، أو من خلال انتقال ابن الجهاز إلى صفوف الجماهير وتخليه عن وظيفته، رغم ما قد يترتب على هذا التّصرف من تبعات، كالسّجن أو الإعدام.

---

[1] **الموقعة – الحادثة – يوميات متلصص ، مصطفى خليفة .**

إنّ علاقة الأجهزة بالمواطن ، إما أن يكون ابنه أو أخاه أو أباه أو عمه أو خاله أو جاره أو أحد قرابته.

وأيضاً شوّهت علاقته الأجهزة الأمنية بالكثير من العوامل الإضافية، مثل الخلفيات العرقية، أو الطّائفية أو الدّينية أو السّياسية، التي تُكون فيها عقلية المسئولين عن هذه الأجهزة، بالإضافة إلى حالات الفساد التي سببتها تجاوزات السّلطة بالمال، وانتشار المحسوبية والواسطة، وانعدام كفاءة المسئولين الذين يصلون إلى مراتب القيادة بناء على الكفاءة، أو مدى إخلاصه في خدمة الوطن والمواطن، كلّ هذه العوامل أدّت في مجملها إلى النتيجة القاتمة الحتمية لرموز القمع والطغيان.

على أنّ الدّور الواجب على هذه الأجهزة، والواقع على كاهلها في مثل هذه الظروف التي تعيشها بلدان الربيع العربي، يجب أن يكون إفساح المجال للمتظاهرين بالتعبير عن مطالبهم بحرية وتوفير الحماية لهم، مع ضبط الخارجين عن القانون، والتّجربة الأردنيّة في هذا المجال ماثلة أمام أعيننا، حيث قامت أجهزة الأمن بالأخص الشّرطة، بتوفير الأمن للمتظاهرين، وتوزيع زجاجات الماء عليهم، هذه الصّورة التي رأيناها لأول مرة في وطننا العربي، تعتبر أول أثر ملموس لهذه الثّورات، فهذا النموذج يمكن البناء عليه، واعتباره خطوة أولى في طريق الألف ميل، وطريق التّغيير.



الباب الثالث

خلف الكواليس

مما لا شكّ فيه أنّ الجماهير التي وضعت نفسها في وجه الموت والرّصاص، وبطش قوى الطّغيان ، قد حرّكتها مشاعر صادقة، وإحساسها باقتراب الخلاص من تلك القيود التي كبّلتها على مدار السنين العجاف. والسؤال هنا من وقف وراء هذه الثّورات ومن حرّكها؟ ومن وفّر لها الإمكانيات؟ ولماذا في هذا الوقت بالذّات دون غيره؟.

لقد آمنت الشّعوب بأنّها قادرة على الانتفاض وتغيير الواقع الذي قبلت به، وترزح تحته طوال السنين ، والتي تخطى الأربعين عاماً عند البعض.

ولمعرفة الإجابة على هذه التساؤلات، لا بدّ لنا من التّطرق إلى الظّروف التي مرّت بها هذه الثّورات، والسّمات التي اتسمت بها، وهي وإن اختلفت في تفاصيلها، فقد تشابهت بمجملها، حتى ظنّ الواحد أنّ هذه الثّورات التي بدأها الشّعب التونسي، ولا زال يخوض غمارها الشّعب السّوري الأبي، والتي لم يهدأ بركانها بعد في كل مواطن الظلم والطغيان والاستبداد، فالناظر لهذه الثورات يرى وكأنّ هذه الثورات قد استنسخت أختها، ومن هذه السّمات:-

١-إنّ كلّ التّحركات الجماهيرية بدأتها مجموعة من الشّباب من خلال دعوات وجهت عبر مواقع التواصل الاجتماعي {توتير - فيس بوك - يوتيوب}، ولاقت استجابة جيدة تنامت بشكل متسارع ومذهل ومفاجئ.

٢-مشاركة كافّة الفئات المجتمعية والفردية، فقد برزت صور لعائلات بأكملها شاركت في الاحتجاجات بما في ذلك أطفال هذه العائلات، رغم خطر الموت المتربّص بالمشاركين، لكنّ الدّور الأبرز كان لفئة الشباب من كلا الجنسين، الذين أخذوا على عاتقهم مهمّة تحرير مجتمعاتهم من العبوديّة والتبعيّة لأنظمة الظّلم والطغيان.

٣- عدم وجود قيادة تقليدية واضحة للثّورات، وإنما كان التنسيق والإعداد يتمّ من خلال عدد كبير من الشّباب، اتفقوا على هدف تحقيق أهداف الثّورة وعلى رأسها إسقاط النّظام ، الذي يمثّل رأس الفساد والظّلم والاستبداد.

٤-غياب الأحزاب عن ساحة الفعل والاكتفاء بردة الفعل ومحاولة اعتلاء الموجة، بعد ما تبين لهم إمكانية النّجاح لهذه الثّورات، وسعيهم لقطف ثمار الثورة، للوصول إلى كراسيّ الحكم وتحييد أصحابها الحقيقيين.

٥- الدّعم الغربي للثورات، والذي تراوح بين مساندة متأخرة لمطالب الشّعب التونسي عبر وسائل الإعلام، مروراً بالمساندة المباشرة ، وتبني المطالب الشّعبيّة كما هو الحال في مصر، فكان الدّعم عبر إتاحة التقنيات لإبقاء التّواصل مع العالم الخارجي قائماً، واستخدام المؤسسات الدوليّة([١])

---

[١] المؤسسات الدولية : هي تلك المؤسسات التي تتيح العضوية فيها للدول بالتدخل بشؤون الدول المنتسبة لها مثل: مجلس الأمن والجامعة العربية والاتحاد الأوروبي. والمنظمة الدولية

من أجل استصدار قرارات وعقوبات كما في سوريا، أو المشاركة في إيجاد صيغ للحل مع الدّول الأخرى، مثل ما حدث في اليمن، وصولاً إلى التّدخل العسكري المباشر كما في ليبيا.

إنّ هذه السّمات تلاقت مع بعض الظّروف الموضوعيّة التي وفرت الأجواء لهذه الثّورات وجعلت من الأرض تربة خصبة لنموّها، مثل:-

١- الفساد المستشري في مؤسسات الدّولة، من أصغر مرتبة إلى رأس النّظام، من وزراء ونواب، وحتى الرئيس وعائلته، مما عمّق حالة الفقر والاحتياج إلى المساعدات الخارجية، ومنع إمكانية النّهوض بالواقع بسبب الفساد من أموال، فعلى سبيل المثال، يكلف الفساد مصر سنوياً ٨.٥ مليار جنيهاً([1]).

٢- سياسة التجهيل وتفشي الأمية، التي بلغت في الوطن العربي أكثر من ٢٧.٣%، أي حوالي ٦٠.٤ مليون أمي في بلاد {أمة اقرأ}، تربعت على عرش الدول العربية في هذه الأمية، المملكة المغربية التي بلغت فيها نسبة الأمية ٤٥%، تلاها اليمن بنسبة بلغت ٤٤%، تلاها مصر بنسبة بلغت ٤٠%، وهنا يحق لنا أن نسجل فخراً لفلسطين التي تقع تحت أسوأ احتلال شهده التاريخ المعاصر، إذ انخفضت نسبة الأمية منذ سيطرة السلطة على

:هي كائن قانوني (كيان) أو وحدة قانونية تضم مجموعة من الدول، تنشأ من خلال اتفاق دولي، و تتكون من أجهزة او فروع دائمة، وتتمتع بإرادة ذاتية مستقلة في مواجهة الدّول المكوّنة لها، وذلك بقصد رعاية بعض المصالح المشتركة او تحقيق أهداف معينة.

[1] بحسب ما أورده البنك الدولي ونشرته جريدة القدس في ٣٠ / ٨ / ٢٠١١م.

العملية التربوية عام ١٩٩٧م من ١٣.٩% إلى ٥.١% عام ٢٠١١م([1]) كما من الواجب إخراج سوريا من هذه الدائرة –دائرة الأمية– حيث تكاد تكون النسبة معدومة.([2])

٣–تفشي البطالة في صفوف الشّباب العربي، والتي بلغت في العام ٢٠١١م حوالي ١٥% جلّها في صفوف الشباب الجامعي، وتربعت على عرش هذه البطالة في وطننا العربي كلاً من سوريا ومصر بنسبة ٦٠%، تليهما اليمن بنسبة ٥٢%، ثمّ تونس والمغرب والأردن ولبنان بنسبة بلغت ٤٠ %([3]).

٤–الفقر المدقع الذي تعيشه الشّعوب في البلدان العربية، والذي تخطّى في بعضها حدّ المعقول، إذ شمل أكثر من نصف سكان الدّولة، فقد تربعت اليمن عرش الدّول العربية في ارتفاع نسبة الفقر، إذ بلغت حوالي ٦٠% من مجموع السّكان البالغ عددهم ٢٤مليون نسمة، وفي مصر بلغت نسبة الفقر فيها حوالي ٤٠% إلى ٥٠ %([4]) من جموع سكانها البالغ ٩٢مليون نسبة ، بالإضافة إلى تدنّي الرواتب الدنيا، وانخفاض الإنفاق على التّنمية الاقتصادية، والذي يصل في أحسن أحواله إلى ٥ % فيما الاقتصاديات الناشئة ١٥ %.

---

[1] الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني ٢٠١١م كتاب فلسطين الإحصائي السنوي ٢٠١١م رقم ١٢ رام الله فلسطين.

[2] كما ورد في إحصاءات الأمم المتحدة بمناسبة اليوم العلمي لمحاربة الأمية نشر في جريدة القدس ٢٠١١/٩/٩م.

[3] كما ورد في مقال للكاتب حسين شكشي ، نشر في جريدة القدس ٢٠١/٩/١١م.

[4] الفقر في مصر كما ورد في مقال للكاتب عاطف العري نشر في جريدة القدس في ١٥ / ٦ / ٢٠١١م ، أما باقي الدول حسب ما نشر في العديد من الأعداد والمقالات لجريدة القدس .

٥-سياسة تكميم الأفواه، وفرض الرّقابة على وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمكتوبة، والاعتداءات المتكرّرة على حريّة التّعبير، كحقّ من حقوق المواطن، فالرّقابة لا يمكن تجاوزها في دولنا العربية، هذه الدّول التي تقبع في آخر درجات سلّم الحريّات الذي تنشره مؤسسات حقوق الإنسان الدوليّة، التي ذكرت بشهادات مشفوعة بالقسم تفاصيل مروّعة عن عمليات التّنكيل والتّعذيب والممارسات اللاإنسانية والتي يُقتل في بعض الأحيان من نتائجها عدد من المواطنين.

٦-تنامي الشّعور بالظّلم والإجحاف، وغياب معايير الكفاءة والخبرة، وحلول معايير الولاء للنّظام والمحسوبيات والواسطة، لاختيار الوظائف الحكوميّة حتى أصبح شبابنا العربي يطلق على هذه الآفة تهكماً {فيتامين واو}.

٧-الاستفراد بالحكم من قبل شخص بعينه وبطانته، فقد دام حكم زين العابدين منذ وصوله إلى الحكم عام ١٩٨٩م حتى فراره ٢٠١١/١/١٤م إي ٢٢ عاماً، والرئيس المصري بقي جالساً طوال ٣٠ عاماً، منذ ١٩٨١م إلى أن تنحى ٢٠١١/٢/١١م، والرئيس معمر القذافي بقي على الكرسي منذ عام ١٩٦٩م حتى مقتله على يد الثّوار ٢٠١١/١٠/٢٠م([1]) إي أنه حكم البلاد لأكثر من ٤٢ عاماً، والرّئيس اليمني علي عبد الله صالح حكم البلاد لأكثر من ٣٤ عاماً، إي منذ وصوله للحكم عام ١٩٧٨ م إلى تخليه عن السّلطة عام ٢٠١٢م، والرّئيس السوري ما زال جالساً على كرسيه منذ عام

---

[1] قتل معمر القذافي في مدينة سرت ،وقد وجد في سرداب لمجاري المياه على يد الثوار في٢٠١١/١٠/٢٠م.

٢٠٠٠م، ولا يتنفس المواطن العربي الصعداء أن وجد من الحكام العرب من له في الحكم أقل من ثلاثة عقود، (فبشار ورث الحكم عن والده حافظ الأسد الذي وصل إلى الكرسي عام ١٩٧١م إلى أن غيبه الموت عام ٢٠٠٠م إي حكم لأكثر من ٢٩ عاماً)، في أعجوبة توريث الحكم بالنظام الجمهوري التي لن تراها إلا في أوطاننا العربية.

٨- هذا بالنّسبة للأشخاص، أما بالنّسبة للأحزاب، فحدّث ولا حرج، فالأحزاب الحاكمة في أقطارنا العربيّة، إما أنّها في الحكم منذ تأسيسهاّ، مثل الحزب الوطنيّ الديمقراطيّ بمصر، أو إنّها في الحكم منذ أن وصلت إليه بانقلاب عسكريّ، مثل حزب البعث العربي الاشتراكي في سوريا، والذي وصل لسدّة الحكم عام ١٩٦٣م، أي قارب على وجوده أكثر من نصف قرن، ووصل الأمر عند هذا الحزب أن صوت نوابه على قرار يحذر وجود أي حزب على أرض سوريا عدا حزب البعث، فهذه الأحزاب كما رؤساؤها لم تغادر الكراسي إلا عبر انقلاب عسكري ، أو ثورة، كما كان وصولها بنفس الطريقة.

٩-اعتقاد الشّعوب أنّها محكومة من قيادة تابعة للغرب، مهمّتها تنفيذ إملاءات أعداء الأمّة، بل أنّ الطغمة الحاكمةً عميلة بشكل مباشر لأسيادها الغربيين، وذلك من خلال ما تغذّيه أحزاب المعارضة في عقول الجماهير، مستدلين بمشاركة هذه الدّول في الحرب على العراق، وما يسمى بالحرب على الإرهاب، وبالصّمت التّام إزاء ما يحدث في فلسطين من قبل الاحتلال الصهيونيّ، والخنوع لمطالب الغرب مهما كانت هذه المطالب تعارض مصالح

ورغبات وتطلّعات شعوبهم، والكثير الكثير من المواقف التي فسّرتها الجماهير على أنّها إذعان، وليست بالضّرورة عمالة لصاح الغرب، إنّما مودّة لطبيعة العلاقة التي تربط هذه الأنظمة بالغرب، فالدّول العربية بين محتاجة إلى المعونات الخارجية ، كمصر التي تتلقى ٢.٢ مليار سنوياً، والأردن التي تتلقى مليار دولار سنوياً، ومحتاجة للحماية الغربية كدول الخليج، التي تحتضن أكبر القواعـد والأساطيل على أراضيها، وسوريا التي تتلقى الدعم العسكريّ والماديّ من روسيا وإيران، هذا بالإضافة إلى أنّ معظم أرصدة الحكام سرّيّة ومتواجدة في بنوك خارجية تخضع للسّيطرة الأمريكية والأوروبية، فقد جمدت أمريكا وأوروبا أرصدة النّظام الليبي الخارجية والتي بلغت أكثر من ٨ مليار دولار، سواء ما كان منها أموال دولة ، أو ما كان باسم القذافي وعائلته وأعوانه، والتي كانت لهم حصة الأسد، فالبعض يعلم أن بقاءه على العرش مرتبط ارتباطاً مباشراً بمدى تنفيذه لأجندة الولايات المتحدة وحلفائها.

وخلاصة الأمر هنا، أنّ الأنظمة الدكتاتورية عندما تفقد شرعيتها أمام شعوبها، بسبب انشغالها بما يخدم مصالحها، لا ما يخدم مصالح شعوبها، فهذه الأنظمة تضطّر إلى البحث عن هذه الشّرعية من الخارج، وهو ما تقدمه الدّول القوية، بغية السّيطرة على هذه الدّول وإخضاعها لولايتها، مقابل توفير الحماية التي تبقي النّظام على رأس الحكم، لكنّ السّؤال الذي يطرح نفسه هنا، إذا كان هذا حال بعض الأنظمة العربية، فلماذا لم تتدخل الولايات المتحدة وحلفاؤها لإنقاذ هذه الأنظمة بالرغم مما

قدمته هذه الأنظمة من خدمات؟ - وغامرت بكل شيء لإثبات إخلاصها - وقرّرت الولايات المتحدة وحلفاؤها انتظار المجهول.

وهنا لا بد لنا من تذكر حادثة بقيت ماثلة أمام صنّاع القرار الأمريكي، ولا مبالغة إذا قلنا أنّ هذه الحالة طبعت كل تّصرفات الأمريكيين وحلفائهم، والحادثة باختصار:- وهي قيام الولايات المتحدة بدعم نظام محمد رضا بهلوي شاه إيران، إبان الثّورة الإسلامية بقيادة الخميني، لِما كان يشكله نظام بهلوي من أهمية بالنّسبة للغرب ومصالحهم، بالإضافة إلى علاقته المميزة مع الكيان الصهيوني، لذلك دعمت الولايات المتحدة وحلفاؤها هذا النّظام بكل ما استطاعت إليه من سبيل ، إلّا أنّ إرادة الشّعب الإيراني كانت أقوى من كلّ هذه التحالفات ، ونجحت الثورة بإسقاط نظام بهلوي عام ١٩٧٩م، الأمر الذي كلّف أمريكيا وحلفاءها ثمناً باهظاً لا زالوا إلى يومنا هذا يدفعونه، بالإضافة إلى اعتبار الشّعب الإيراني أمريكا والغرب عموماً عدواً لا يقلّ عداءً عن الشاه ونظامه.

إنّ هذه الحادثة الماثلة في ذاكرة الأمريكيين جعلت صنّاع القرار فيها يوقنون أنّ إرادة الشّعوب لا يمكن أن تهزم، لذلك كان القرار الاستفادة من هذه الإرادة بدل الوقوف ضدها، بل ودعمها إذا أدركوا أنّ الثّورة ناجحة لا محال، وبذلك تعمد إلى تصوير نفسها صديقاً ومؤيدة للشعوب لا عدواً لها، وما حدث في المنطقة لم يخرج عن هذه الحقيقة الواضحة وضوح الشمس.

كل هذه الظروف والمعطيات، كانت المحرك الداخلي للشّعوب، والوقود الذي أزكى نار بركانها، على أننا يجب ألّا نغفل عن العامل الخارجي الذي حرّك الأحداث وأثّر بها، فما من عاقل يؤمن أنّ أجهزة مخابرات أصغر دولة لن تسعى إلى تسخير ما يدور في وطننا العربي لخدمة مصالحها، آخذين بعين الاعتبار أهمية هذه المنطقة الحيويّة جغرافياً واقتصادياً وعسكرياً ودينياً، لذلك إنّ المراقب للأحداث يرى كم من الأيادي الخفية حرّكت الأحداث وليس توفير التقنيات، وإبقاء مواقع التواصل الاجتماعي في خدمة الشّعوب وبمتناول يدها، بل إنشاء مواقع ما بات يعرف باسم { جروب } وتعني المجموعة أو الفريق – من الدول الغربية – دليل آخر على ذلك، واضعين نصب أعيننا أن أمريكيا وحلفاءها قادرين على إزالة هذه المواقع بضغطة زر، لأنّها تُشَغَلْ من قبل شركات في الدول الغربية، وهذا ما حدث عندما خرجت دعوات على مواقع التواصل الاجتماعي تدعو للقيام بمسيرات على حدود فلسطين المحتلة، وكذلك عندما تم إزالة مقطع فيديو لراجمة صواريخ محلية الصنع، استخدمتها المقاومة الفلسطينية في قصف المجمعات الاستيطانية على حدود قطاع غزة، لأن ذلك أوقع الذعــر في أواسطهم، فما هو السّر في ذلك؟ مع وجود قناعة راسخة باستحالة إعطاء جواب شافٍ ودقيق مبنيٍ على أساس سليم على هذا التساؤل المشروع في الوقت الراهن، الذي قد تتاح فرصة للإجابة عليه مستقبلاً، لكن يمكن الاستشهاد ببعض المواقف وعرض بعض الحقائق في إطار هذا السياق.

يظهر أنّ هناك من وقف وراء الكواليس محاولاً إيصال النّتائج إلى نقطة تخدم مصالحه، وتسهّل عليه قطف الثّمار دون غيره، {{ليس المقصود هنا اتهام الشّعوب بتلقي الأوامر من الخارج، لا يُقصد من الصور أن نُصوّر هذه التّحركات على أنّها تنفيذ الأجندة الخارجية، إنما الهدف من ذلك إظهار حقيقة أنّ العوامل الخارجية، كانت في بعض الأحيان أكثر تأثيراً في مجريات الأحداث، سواء بشكل مباشر عبر رجاله المعروفين، أو من خلال أنشطة أجهزته ومخابراته الممولة بشكل جيد ، أو من خلال وسائل الإعلام بشتى الوسائل}}.

ومن تلك الحقائق والمواقف مشاركة أجانب في الاحتجاجات والاعتصامات التي قامت بها الجماهير ضدّ الأنظمة، والتي لاحظناها من خلال ما ورد على شاشات التّلفاز، وحمل هؤلاء الأجانب شعارات مناهضة للحكومات، فما هي مصلحتهم رغم خطر الموت أو الاعتقال المتربّص بهم أكثر من غيرهم؟ وما الهدف من وراء ذلك؟ وما هو الثمن؟ نحن نعلم أنّ من طبيعة عمل المخابرات زرع أفراد بشكل مُحكم لنقل المعلومات ورصد الأوضاع، ونشر الإشاعات والتّسريبات التي تهدف إلى استغلال الأحداث، وتسيّرها وفق ما يخدم أجندة وأهداف هذه الأجهزة، فعلى سبيل المثال صرح رئيس الاستخبارات الأمريكية {C.I.A} أن ّلديه معلومات تفيد بأن مبارك سيتنحى في خطاب سيلقيه في١٠/٢/٢٠١١م، والذي فوض مبارك صلاحيته من خلاله نائبه عمر سليمان، هذا الإعلان من رئيس {C.I.A} بالإضافة إلى

تسريبات على لسان قيادات من أمثال أحمد شفيق([1])، وحسام بدراوي([2]) أدى إلى رفع سقف التوقعات لدى الجماهير، ولكن مبارك في خطابه لم يتطرق إلى التنحي، واكتفى بتفويضه السلطة إلى نائبه عمر سليمان، مما أدى إلى رفض وغضب الجماهير عَمَ أرجاء مصر. والشّاهد هنا في هذا الحدث، هو كيف أنّ تسريب إشاعة أدّى إلى هذا الغضب واضعين نصب أعيننا حقيقة لا يمكن إغفالها، حيث لا يمكن تصديق أن وكالة استخبارات في العالم بل أعلى مرتبة فيها، قد يبني معلوماته بناءً على تقارير صحفية لا يمكن الوثوق بها، إلا إذا كان الهدف تأجيج مشاعر الجماهير، وخدمة لرؤيا وأجندة معينة.

وإضاءة أخرى يمكن الاسترشاد بها، وهي دعم المؤسسات الأهلية والخاصة، التي أدت إلى فتح تحقيق قضائي في مصر بعد نجاح الثورة، على إثر ما تًكّشف من معلومات حول نشاط ومصادر وتمويل هذه المؤسسات، ولا يخفى علينا أنّ أجهزة المخابرات تعمد إلى التّستر بمثل هذه المؤسسات للتّغطية على أنشطتها، أو على الأقل استغلالها لتمرير مخططات لخدمة أهدافها.

[1] آخر رئيس للوزراء في عهد مبارك – صرح ذلك للإعلام وبثته قناة العربية ١٠/٢/٢٠١١م.

[2] حسام بدراوي الأمين العام للحزب الوطني الذي خَلَفَ أحمد عز الذي استقال من أمانة الحزب يوم ٢٩/١/٢٠١١م.

وفي ذروة هذه الإشارات، اعتقال الإسرائيلي { إيلان جرابيل}، عندما كان متواجداً في داخل فندق بوسط القاهرة([1])، وما أشيع في حينه عن كونه يعمل في جهاز الموساد، وهو الذّراع الأمني الصهيوني المسؤول عن جميع أعمال التجسس في خارج الكيان الصهيوني.

وآخر هذه التّحركات هو إيعاز كل جهة لرجالها، والعمل على استغلال الفرصة من أجل خطف الأضواء وقطف ثمار الإنجاز، وتتساوى في ذلك الدول والأحزاب ، فكلّ حصد الثّمار ، صديقاً كان أو عدوا، بدافع سياسي أو ديني أو أمني أو اقتصادي أو اجتماعي، فعلى سبيل المثال، عاد محمد البرادعي إلى مصر في ٢٠١١/١/٢٧م قادماً من الولايات المتحدة بعد يومين على اندلاع الثورة، ليعقد مؤتمراً صحفياً في المطار يقول فيه : {{إن التّغيير قادم لا محالة}} وهو المعروف عنه بتبعيّته لأمريكا، وتقديم خدماته لها، وليس أقلّها بتمهيد الطّريق لأمريكا وحلفائها بضرب العراق واحتلاله {عام ٢٠٠٣م}، من خلال مشاركته في مسلسل الأكاذيب حول امتلاك العراق للسّلاح النّوويّ، ومثال آخر في هذا المضمار كان بعودة راشد الغنّوشي المعارض التّونسي، المعروف بأمير حزب المعارضة التونسي – فرع جماعة

---

[1] وقد أعلن المستشار عادل سعيد النائب العام المساعد عن إلقاء القبض على الجاسوس الإسرائيلي في أحد الفنادق بوسط القاهرة، وأوضح المتحدث الرسمي للنيابة العامة في بيان له ، أن النيابة العامة كانت قد تلقت معلومات من المخابرات العامة المصرية والتي أشارت فيها إلى أن الجاسوس المذكور تم دفعه إلى داخل البلاد وتكليفه بتنفيذ بعض المهام من قبل الجانب الإسرائيلي ونقل معلومات عن الأوضاع الداخلية خلال الثورة.

الإخوان المسلمين هناك- والأمثلة على مثل هذه الحالات كثيرة، لكنّنا نكتفي بما ورد ففيه الإيضاح والإيجاز.

هذه الإضاءات توضّح مدى التأثير الذي مارسته أجهزة المخابرات العالمية في محاولة منها لجني ثمار الثّورات، ومحاولة تسييرها وفق ما تراه مناسباً، وكلّ بحسب ما يعتبره خادماً للاستراتيجية الأمنية والسياسية، لكن ليس العمل المخابراتي وحده استخدم للتأثير على الرأي العام، بل هناك ما هو أهم في هذا السياق، إنّه الإعلام حيث عمدت كل وسيلة إعلاميّة مرئيّة كانت أو مسموعة أو مكتوبة إلى تغطية الثّورات وفق ما رسم لها مالكها، وأصحاب النّفوذ فيها، وسيرد باباً خاصّاً حول هذا الموضوع لاحقاً، لكن بما أنّنا نتحدث عن محرّك هذه الثّورات لا بدّ من المرور على هذا المحرك الأهم وإن كان بصورة رمزية الآن.

إنّ النّاظر إلى هذه الإضاءات يدرك تمام الإدراك أن ّالأمور لم تكن بتلك العفوية التي يتصورها البعض، ولم تكن دوماً بصورة تلقائية، فالتّحريض على مواصلة الحراك الجماهيري والتأثير بمدى تصاعده، هذا لم يكن حكراً على دولة أو منظمة أو مؤسسة، بل إنّ سيمة التدخل الخارجي بادية لكل ذي بصيرة، لكن هناك فرق بين استغلال الظّروف _كما حدث في هذه الثورات_ ، وبين صناعة الأحداث والتحكم المطلق بها، فطبيعة التّحركات والهبات الجماهيرية التي تتيح إمكانية التأثير عليها أكثر من

نظيراتها، في الطّبقة المثقّفة والنخبة أو كتلك التي تكون في صفوف الجيش.

فلا يمكن لأحد إنكار مدى تأثير العقل الجمعي لدى الجماهير في مثل هذه الظّروف، فعلى سبيل المثال قامت الجماهير الغاضبة في مصر بإحراق وتدمير مراكز الشرطة والأجهزة الأمنيّة، وبعض مصالح الدولة ومراكز الحزب الوطنيّ الحاكم، بصورة انتقاميّة عشوائيّة، وقد أثبتت الدّراسات أنّ الجماهير تتأثر بشكل أكثر فاعلية عندما تكون في حالة غضب، وهذا ما يسميه علماء الاجتماع والنفس السير وراء العقل الجمعي، فشخص واحد قد يدفع جموع الجماهير الغاضبة إلى التصرف بصورة لا ترغبها، دون إعمال العقل للحظة من الزمن، أو إنّ الشّخص الذي قام بتصرفات معينة مع الجموع، لن يقدم عليها وهو بمفرده، ليس بدافع الخوف من العواقب إنما بدافع التعقّل، وفي ختام هذا الباب يبقى السؤال مطروحاً، والباب مفتوحاً على مصراعيه، هل ما جرى في دولنا العربيّة مؤامرة حيكت خيوطها في الخارج؟ كما حاول كل نظام تصوير الأمر، بل وكما يعتقد عدد لا بأس به من المتابعين لما جرى، والذين رأوا إن المستهدف في هذه المؤامرات هو المشروع القومي العربي، الذي بدأته هذه الأحزاب وأنظمتها الحاكمة، بسبب ما قالوا إنه نُضج في الرؤيا السّياسيّة، وبداية تحرر من التبعية للغرب، مستندين إلى شواهد كثيرة مما ورد في هذا الباب، وما كان على شاكلتها، وكذلك مستشهدين بما ورد من تصريحات لصنّاع القرار

الأمريكيين، كالميل لشرق أوسط جديد([1]) أو التنبؤ لحدوث اضطرابات في المنطقة قبيل حدوثها([2]) وتسريبات بما بات يعرف بتسريبات وثائق ويكيليكس. ولها دقّة من وجهة نظرهم إلى زعزعة الثّقة برأس هرم هذه الأنظمة المزعزعة في الأصل، أم أنّها محاولة لاستباق الأحداث وتدارك الانهيار المحتمل لهذه الأنظمة؟ إذا ما أردنا إسقاط نظرية ابن خلدون عن الحضارات، وأنّ لها مراحل حياة تولد وتَشِب ثم تهرم وتموت([3])، وترتيب الأوراق من جديد في المنطقة، والعمل على إيجاد لاعبين جدد على السّاحة، بحكم أنّ اللاعبين السّابقين باتوا غير قادرين على تقديم المزيد، فكان لا بدّ من تغيير هذه الوجوه بأخرى مقبولة لشعوبها، واستبدال خادم بآخر.

أم أنّ الأمر برمّته لا يتعدى استغلال القوى الخارجية لما جرى في وطننا العربي، للاستفادة منه بأقصى ما يمكن سياسيّاً واقتصاديّا وأمنياً، ومحاولة حرف المسار عن اتجاهه الصحيح إلى ما يخدم أهدافها وأجندتها وتطلعاتها، وبالتالي نسف ما قيل عن نظرية المؤامرة من جذورها، الأمر الذي يتيح لنا البحث عن الأسباب الحقيقية التي أدّت إلى هذا الانفجار العظيم؟!!

---

[1] الذي قالته وزيرة الخارجية كونداليزا رايس أثناء الحرب الإسرائيلية على لبنان عام ٢٠٠٦م.

[2] والذي تنبأت به وزيرة الخارجية الأمريكية هلاري كلنتون قبل أسابيع من اندلاع الثورات عام ٢٠١٠م.

[3] للاطلاع على ما قاله ابن خلدون في ذلك راجع مقدمة بن خلدون.

إنّ هذه الأسئلة والتصورات مشروعة، ولأصحاب كل تصوّر أن يمحصوا هذه الأحداث ويعيدوا ترتيبها بما يعزّز الاعتقاد السائد لديهم، على أنّنا نستطيع أن نرى نصف الكأس المليء في هذا الأمر، فمن أحلك السّيناريوهات والتّصورات يبزغ نور الانجاز، الذي سطع من حقيقة أنّ الشعوب قد كسرت حواجز الخوف والخنوع، وما عادت تقبل بأن تنساق كما الخراف، بل أنّها أضحت اليوم قادرة على لفظ أي نظام لما يبدر منه، لما يخالف تطلعات هذه الشّعوب وآمالها، ولو لم تحقق هذه الثورات إلا هذا الأمر لكان كافياً، فالمعضلة التي كانت تعاني منها أقطارنا العربية تمثلت في حالة الاستسلام والخنوع، واللامبالاة التي سادت، ولم يغيرها إلا سيل الدم الذي سال من تونس ولم يجف في سوريا بعد.

الباب الرابع

دموع التماسيح

لا ريب أنّ التّدخّل الغربيّ في المنطقة، وما اعتراها من أحداث غيّرت خارطة الحكم، وإن تفاوتت حدّته وتعداد أشكاله، فمردّه إلى اعتقاد أصحابه بموافقة ذلك لمصالحهم، وبما يؤمّن لهم إمكانية التّحكم بخيوط اللعبة لبلوغ غاياته المتمثلة باجتماع أكبر عدد من الدّول لولايتهم، واستغلال مقدّراتها الاقتصاديّة والبشريّة، وهذا ما طَبعَ تدخلات الدّول الغربيّة في دعم تطلّعات الشّعوب إلى الخلاص من أنظمة القمع والاستبداد، والتّمتع بنظام حرّ يعبر عن آمال وتطلعات الأمّة العربيّة.

إنّ المتتبع للدّور الغربيّ في المنطقة، يرى أنّه قد غـُلّف بالكثير من المعاني الإنسانيّة، وادّعاء الرّغبة الصّادقة في الوقوف إلى جانب الشّعوب المقهورة بل وذرف الدّموع من أجل ضحايا الأنظمة، متناسين دورهم التاريخيّ بصناعة بعض هذه الأنظمة وحماية البعض الآخر، حتى الاستعانة بخدمات الأنظمة التنكيُلية، وأحدث الأساليب لتعذيب السّجناء بغية أخذ اعترافاتهم، فيما عُـرف بقضية السّجون السّريّة لوكالة الاستخبارات الأمريكية (C. I. A) وما كشف عن تورط أكثر من دولة أوروبيّة في هذا المجال([1]).

---

[1] لقد ورد ذكر تونس بشكل كبير في تحقيقات الاتّحاد الأوروبيّ في هذه القضية .

وناسين أو متناسين دورهم في سرقة خيرات البلاد وسرقة مواردها، فمن الاحتلال العسكريّ المباشر في نهايات القرن الثامن عشر، إلى الوصاية والحماية والانتداب([1]) في أوائل نهاية القرن العشرين، أو الاستعمار غير المباشر من خلال الاقتصاد ، وثقافياً في عصر العولمة إلى العودة من جديد إلى أشكال الاحتلال العسكريّ مع فاتحة هذا القرن، فتعددت الأشكال والهدف واحد، لأخذ خيرات الشّعوب ومقدراتها.

إنّ معالم التّدخل الغربيّ يكاد يكون معدوماً في ثورة الياسمين التي خاضها الشعب التونسي ، وذلك كون تونس كانت البداية التي فاجأت الجميع، الأمر الذي أدّى إلى اضطراب وإرباك عند صُنّاع القرار الغربيين، وفي كيفيّة التعامل مع هذه الثّورة، حيث قامت إيطاليا بدعم نظام بن علي، وقد صرحت وزيرة الخارجيّة الفرنسيّة بدعم بلادها لنظام بن علي، وبأنّ دولتها على استعداد لإرسال معدات لشرطة مكافحة الشّغب، إلا أن هذه الدّولة وغيرها سرعان ما بدّلت موقفها عندما شاهدت أنّ الشّعب التّونسي أضحى قاب قوسين أو أدني من بلوغ الهدف المتمثل بإسقاط بن علي وأركان نظامه، ولتخرج وزيرة الخارجيّة وتعتذر على ما بدا منها للشّعب التّونسي، وليحذو الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي حذوها، ثمّ يقبل استقالتها بسبب ذلك، ولتعلن إيطاليا دعمها لإرادة الشّعب التّونسي، ثمّ

---

[1] لمعرفة الفرق بين الانتداب والحماية والوصاية راجع الموسوعة السياسية الأجزاء (١ ،٢ والأخير).

توالت المساندات الإعلاميّة المتأخرة من الدّول الغربيّة، وثمّ التّرحيب بالنّجاح الذي حقّقه الشّعب التّونسي في هذه الثّورة.

هذا الاضّطراب والارتباك، جعل قادة الدّول الغربيّة يتعاملون بحذر شديد، إزاء انتقال العدوى إلى دول المنطقة، فالتزموا الصّمت مع بداية التّحركات التي خاضها الشّعب المصريّ، وسرعان من انتقلوا إلى الإمساك بالعصيّ من الوسط، حيث قام الرّئيس الأمريكيّ باراك أوباما بمطالبة الرّئيس المصريّ بضرورة الاستجابة لمطالب شعبه، ذلك في أوّل تصريح له في ٢٠١١/١/٢٨م، تعليقاً على ما يدور في مصر منذ ثلاثة أيام، وفي التّأكيد على هذا النّهج قامت وزيرة الخارجيّة الأمريكيّة هلاري كلنتون بدعوة مبارك بضرورة البدء بإصلاحات جذريّة، لكنّ هذه السّياسة لم تدم طويلاً، فعندما رأت الدول الغربية أنّ كفّة الميزان بالرّجحان لصالح الجماهير، رفعت من وتيرة وحدّة التّصريحات، فواشنطن تطالب مبارك الانتقال من الأقوال إلى الأفعال، والاتحاد الأوروبيّ يطالبه بضرورة نقل صلاحيّاته إلى نائبه، وفي تصرّف مناقض لما انتهجه في تونس، رفضت فرنسا طلباً مصرياً بتزويده بمعدات وأسلحة لمكافحة الشّغب([١])، وقد وصلت ذروة الأمر بالانحياز التّام إلى جانب المطالب الجماهيرية التي طالبت بتنحي مبارك ونهائياً عن سدّة الحكم، ليخرج أوباما ويقول إنّ على مبارك التّنحي الآن وفوراً عن الحكم، والآن تعني الآن وفي تأكيد على صدق هذا التوجه،

---

[١] بحسب ما ذكرته قناة العربية في ٢٠١١/٢/٦م

وفي إطار البحث عن بديل عقدت وزيرة الخارجيّة الأمريكيّة عدّة جلسات مع المعارضة وعلى رأسها جماعة الإخوان المسلمين، ودون تواجد إي من رجال النظام مما أثار حفيظة وزير الخارجية المصري أحمد أو الغيط ([1])، والذي اعتبر ذلك تدّخلا سافرا ومرفوضا في شؤون مصر الداخلية.

وفي إطار عمليّة الخداع، وذرّاً للرّمال في العيون، ودغدغة لمشاعر المصريين، يخرج باراك أوباما رئيس الدّولة الأقوى في العالم ، بتصريح أبهر كلّ المحليين والمراقبين، قال فيه : {شهد التّاريخ بشكل مصر اليوم، وأنّ واشنطن ستبقى شريكاً لمصر، وأنّ المصريين لن يقبلوا بأقلّ من الدّيمقراطيّة، وأنّ مبارك روى ظمأ شعبه بتنحيه، وأنّ الشّعب المصريّ، قال كلمته وأنّ مصر تغيّرت إلى الأبد}، وإن ّهذا التّصريح الذي لم يُصدره صُنّاع الثّورة المصريّة أنفسهم، بيد أنّه يصدر عن أوباما، ولم تكن تصريحات باقي الدّول الغربيّة تخرج عن هذا المضمار ليظنّ البعض إن مبارك إنّما كان قامعاً لشعبهم لا لشعبه.

فالنّاظر إلى هذا الدّعم يجد أنّه لم يخرج منذ البداية إلى النّهاية عن الدّعم الكلاميّ الإعلاميّ مطلقاً.

والتّدخل الأكثر وضوحاً حدث في ليبيا، إذ ما أن اندلعت الاحتجاجات هناك حتى بدأ نهجٌ من التّصعيد ضدّ النّظام الليبي يتصاعد

---

[1] والذي حافظ على حقيبته مع سبعة عشر وزيراً آخراً في حكومة أحمد شفيق التي أمرت مبارك بتشكيلها في ٢٠١١/١/٣١م.

بسرعة فاقت سرعة تطوّر الأحداث ذاتها، وكان واضحاً تصميم الدّول الغربيّة على حسم الموقف في ليبيا لصالح الثّوار الذين حملوا السلاح ضدّ نظام القذافي، والذي قرّر استخدام كافّة أشكال القوة المسلّحة ضدّ أبناء شعبه، فهرع الغرب بكلّ ما أوتي من وسائل، من أجل منع القذّافي من ارتكاب مجزرة بحقّ شعبه حسب ادعائهم، حتى ظنّ السامع بتصريحات الرّئيس الفرنسيّ أنّ الشّعب الليبي مسؤول من ساركوزي، وهو يقوم بواجبه بالدفاع عن شعبه الليبي.

تحت يافطة الدّفاع عن الكرامة الإنسانيّة والحفاظ على الشّعوب ونصرة الضّعفاء، وغيرها من الشعارات البراقة التي صدّقها الكثير من الجماهير الليبية، بدأت الاستعدادات العسكريّة من اجل إسقاط نظام القذّافي، فاتخذ مجلس الأمن من أجل التّغطية على أهداف هذا التّدخل والذي أصدر في ٢٠١١/٢/١٧م قرار رقم ١٩٧٠ الذي أمر فرض حظر جويّ على الأجواء الليبية بالإضافة إلى عقوبات اقتصاديّة، وتم تفويض حلف شمال الأطلسي (الناتو) مهمّة تنفيذ مَضمُونه، لتأخذ الدّول الغربيّة ذلك غطاءً للبدء في ضرب القوات العسكريّة التّابعة للنّظام الليبي، وتقديم الدّعم اللوجستي للمعارضة سواء في المعدات والتقنيات أو في الأفراد حتى سقوط النظام.

هذا عسكرياً، أما سياسياً، فقد كان لتشكيل المجلس الانتقالي في بنغازي _ معقل الثورة_ دور كبير في توفير البديل الآمن، والذي وقف على رأسه وزير العدل المنشق منذ ٢٠١١/٢/٢١م مصطفى عبد الجليل، إنّ هذا

المجلس عنوان مقبول للتعامل معه من قبل الغرب، لتبدأ أمريكا بعد يوم واحد من تشكيل حكومة مؤقتة الترتيب من اجل الإعداد لما بعد القذافي، ليظهر ما بات يُعرف في العلوم السّياسية، بمصطلح القيادة من الخلف، والذي يقصد به إظهار أشخاص مقبولين لدى الجماهير لقيادتهم، فيما يحرّكهم من الخلف آخرين لا يظهرون بتاتاً وذلك لتحقيق أهداف الجهة المحركة ، والتي لن تتمكن من ذلك إذا ظهرت في الصورة.

وفي اليمن وجدت الدّول الغربيّة وسيلة أكثراً أمناً وقبولاً لدى الشّعب اليمني، وذلك من خلال إيجاد صيغة عربيّة للحل، وفق خطّة قضت بنقل السّلطة إلى نائب رئيس الجمهوريّة عبد ربه منصور هادي، مقابل سن قانون يقضي بعدم ملاحقة الرّئيس علي عبد الله صالح وكبار مسؤولية، على أن يكون خروجه إلى الولايات المتّحدة بغرض العلاج، وتم اعتماد هذه الآلية بدايةً من قبل مجلس التعاون الخليجيّ ثمّ تبنيه من قبل الجامعة العربيّة، وجاء أخيراً مجلس الأمن ليعلن دعمه وتأييده لها، وذلك لقناعة هذه الدول أنّ هذه الطريقة الأمثل ، وأنّ أيّ طريقة أخرى تنطوي على مخاطر لا تُحمد عقباها، والملاحظ أنّ الحلول التي أرضت الغرب والعرب وأحزاب المعارضة – والتي انقضّت على الثّورة وصادرت حقّ أصحابها- حق تقرير مصير ثورتهم- لم تكن ترضي الثّوار وليس اقلّها ، إقرار قانون منح الحصانة لصالح وأعوانه، فمجلس التّعاون الخليجيّ الذي هرع لحل ّالأزمة في اليمن، ورفض كلّ الحلول العسكريّة، ومارس الضّغط المباشر على صالح من اجل التّنحي، كان له كلمة أخرى اتجاه الثّورة في البحرين،

فيما كانت مطالب مشروعة للشّعب اليمني، ومقبولةً لدى حكام الخليج، كانت مؤامرة تستحق القضاء عليها في البحرين، وذلك من خلال النظر إلى أنّ هذه التّحركات ذات بعد طائفي، وأنّ الشّيعة المرتهنين لإيران والمدعومين منها، هم المحرّك لهذه المؤامرة، وبناءً على ذلك سرعان ما تحرّكت قوات درع الجزيرة لحسم الموقف، والحفاظ على المملكة، كلّ ذلك على مرأى ومسمع الدّول الغربيّة التي لم تحرك ساكناً، بل لم نسمع تصريحاً واحداً يدين استخدام القوة في إخماد الثّورة هناك، عــدا إيران التي اعتبرت الصّمت العربيّ والغربيّ وصمة عار في جبين الإنسانيّة، مع العلم أنّ إيران اعلنت دعمها للثّورات في تونس ومصر وليبيا واليمن، فلماذا صوّرت التّحركات ودعمها على أنّها مؤامرة ذات بعد طائفيّ تحاك ضدّ المملكة البحرينيّة، وأنّ الخطر يحوم حول الكلّ العربي-أي دول الخليج-، ولذلك كان لا بدّ من إخماد الثّورة في مهدها؟

وأمّا في سوريا تجلّت التّناقضات بأَوضح صورها من خلال المواقف الدوليّة إزاء حمام الدم النّازف هناك، والتي لم تخرج عن الشّجب والاستنكار، ورفض التّدخل العسكريّ بشتّى وسائلة، والمطالبة بحلول سلمية، وجلّ ما قدّم لهم لم يتعد مساعدات إنسانية، أو تقنيات تتيح التّواصل مع الخارج، رغم تجاوز عدد الشهداء في غضون عام واحد ٨٠٠٠ شهيد عدا عن الجرحى والمعتقلين الذين تعرضوا للتعذيب والتّنكيل، وعدد لا يحصى من البيوت المدمّرة جراء القصف المدفعيّ. فأين الأصوات التي علت مطالبة بعلاج الوضع في ليبيا؟ وتحرّكت من اجل ذلك الطّائرات والبوارج

الحربيّة، مع أنّ الأمر لم يكن بخطورة الوضع في سوريا، فأين ذهبت الشّعارات التي أطلقتها أبواق الدّول الغربية؟ أم أنّ هذه الشعارات كانت تصلح قبل شهر واحد في ليبيا ولم تعد تصلح في سوريا.!!!

إنّ الهدف الأساسيّ الذي أدى إلى دخول الغرب بكلّ ثقله في ليبيا كان اقتصادياً بحتاً، حيث طمعت فرنسا بأن تصبح الشريك الأول والمستفيد الأكبر من النّفط الليبي الذي يشكّل ما نسبته ٢%([1]) من الإنتاج العالمي بواقع، ١مليون برميل([2]) يومياً، ولإيطاليا حصة الأسد فيها حيث تستهلك ٣٧٦ إلف برميل يومياً ،وفرنسا بـــ ٢٠٥ ألف برميل يومياً، فكانت فرنسا، تأمل في زيادة استثماراتها الخاصّة في ليبيا ، فهي تعتبر نفسها اللأحق بأسواق المغرب العربي، بما أراقته من دماء إثناء احتلالها له، فهي وإن سحبت جيوشها من هذه الدّول وأنهت احتلالها عسكرياً، إلا إنّها أبقت على احتلالها الاقتصادي، من خلال ربط اقتصاديات هذه الدّول باتفاقيات تضمن إبقاءها سوقاً استهلاكياً للمنتجات الفرنسيّة خاصّة، والغربيّة عامّة، هذه يد المستعمر في كلّ مكان وزمان، وإن كان يختلف في التفاصيل أحياناً، ففرنسا كانت تسعى بالإضافة إلى نهب خيرات البلاد التي تخضعها لسيطرتها، إلى(فرنسة) هذه البلاد- أي محو ثقافة البلاد الأصليّة وإحلال الثقافة الفرنسية-، فيما لم يكن ذلك من أهداف الاستعمار البريطاني . وفي دليل لا يقبل الشّك

---

[1] **بحسب ما أوردته جريدة القدس بتاريخ ٢٠١١/٨/٢٩م.**

[2] **تحتل ليبيا المرتبة السابعة عشر عالمياُ لقائمة الدول المصدرة للنفط.**

على سعي فرنسا إلى بلوغ غايتها الاقتصاديّة ، صرّح وزير الخارجيّة الفرنسيّة الين جوبه خلال مؤتمر صحفي قائلاً:-

{إن التّدخل الفرنسيّ في ليبيا استثمار للمستقبل، وقال أيضاً: إنّه علم أنّ وزارة الدّفاع الفرنسيّ تقدّر تكلفة التّدخل العسكريّ لحلف الناتو بحوالي مليون يورو يومياً، إلا أنّه يرى ذلك كما قال سابقاً استثماراً للمستقبل دون شك}([1]) وفي هذا الإطار صرّح تيري كمورتيني المدير العام لاتحاد أرباب العمل الفرنسيّ في اجتماع مع أعضاءٍ في الاتحاد {أنّ تكلفة إعادة إعمار ليبيا تقدر بـــ٢٠٠مليار دولار وتحتاج لـــ١٠ سنوات من الزمن على أقل تقدير}([2]) وفي تنفيذ عملي لهذه الأقوال، فقد وقّعت شركة سونلة الفرنسية للحبوب، عقد بقيمة ٢٢مليون دولار لتزويد ليبيا بالقمح مع حُكام ليبيا الجدد، كما بدأت شركة كاتيل ولوسنت للاتّصالات، وشركة ساتوفي للأدوية الفرنسيّة، وشركة ستوفي للأدوية الفرنسية، العمل في ليبيا، مما يدلل على بدء شراكة اقتصاديّة متقدمة لصالح فرنسا، القابعة في المرتبة السادسة بواقع ٥٠ شركة في العهد السابق، على حساب إيطاليا التي كانت وقفت في المرتبة الأولى بواقع ١٨٠شركة يليها كلاً من ألمانيا وتركيا والصين.([3])

---

[1] - مؤتمر صحفي نشرت تفاصيله جريدة القدس ٢٠١١/٨/٢٨م.

[2] -بحسب ما أوردته جريدة القدس نقلاً عن رويتر ٢٠١١/٩/٨م.

[3] -في تقرير نشر على جريدة القدس ٢٠١١/٩/٧م.

إنّ الولايات المتّحدة لم تغب عن الاستفادة الاقتصاديّة، وإن كانت بصورة أقلّ بروزاً، فكلّ ما استخدم من أسلحة وذخائر وتقنيات عسكريّة مردودة في الأول لصالح الخزينة الأمريكية، أما سياسياً، فقد تخلّص الغرب عموماً وأمريكا خصوصاً من نظام ادعى على الدوام العداوة لها ولمشروعها في المنطقة والمتمثل بإسرائيل، لتكون رسالة واضحة وضوح الشّمس في كبد السّماء لكلّ دول المنطقة مفادها، إما أن تكون مع أمريكيا وحلفائها، أو أن تكون في الجانب الآخر الذي يعني العمل على إنهائك ولا مكان وسط هنا.

أمّا الدّاعي لعدم التّدخل العسكريّ المباشر في سوريا، كما أوضحه دمتري روجرين المندوب الروسي في حلف الناتو: {هو وجود إسرائيل على حدودها ،وانعكاسات هذا التّدخل على أمنها}([1])، بالطّبع هناك عامل آخر لم يذكره، والمتمثّل بعدم الرّكون لبديلٍ آمن يلبي تطلّعات الدّول الغربيّة في المنطقة، فانتشار فوضى السّلاح في دولة حدوديّة مع الكيان الصهيوني، مع عدم وجود البديل الآمن يعتبر مخاطرة لا تُحمد عقباها، لذلك لم نر الدّموع التي انهمرت أنهاراً في بلاد النفط ليبيا، فهم لم تسل دموعهم على ضحايا الثّورة السوريّة التي فاقت كل ّتصوّر، أم أنّ غياب غازات النّفط منعت عن عيونهم الدموع؟؟؟ أو لعله الضّمير الذي يعمل وفق كمية النفط في الأرض؟!!! لقد تذبذب الموقف الدّوليّ إزاء المجازر في سوريا، ووقف محتاراً بين الرّغبة الجامحة في إسقاط النّظام السّوري البعثيّ، كأحد أركان

---

[1] **كما ورد في جريدة القدس ٢٠١١/٩/١م.**

ومحاور الشّر، وبين الخوف من ظهور بديل يسعى لتحرير الجولان المحتلّ منذ سنة ١٩٦٧م، إنّ مشاهدة الصّور اليوميّة لقصف المدن وتقتيل الأطفال والنّساء والشّيوخ والعُزّلِ من النّاس، قد أسمعت الأصم، وشاهدها الأعمى، فكلّ هذا لم يحرّك ساكناً عندهم، اللّهم إلا الوعود الكاذبة عن تسليح الثوار، بل بتسليحهم بأجهزة اتصال كما يدعون أنّه تسهيل لاتصال الثّوار، ولم يسمع أهل سوريا غير الشّجب والاستنكار، والدعوة للتّفاوض مع القاتل وهو النّظام، والعمل على جمع الضّحية بالقاتل في المحافل التّفاوضيّة من جنيف إلى جنيف،!!!

وهذا ليس دعوة إلى التّدخل الغربيّ، والذي لا يمكن أن يُرَى فيه خدمة لمصالح الأمّة، بيد أنّه رصدٌ للموقف الدّوليّ المتخاذل الذي يرفع شعار حماية الشّعب السوري، وعلت أصوات بكائه على ما ظنّه مجازر محتملة في بلاد النفط، إلا أن أصواته خفتت إزاء المجازر اليوميّة والمروعة التي تُرتكب صباح مساء في بلاد الشّام، وهذا دليل على أنّ ما يُرفع من شعارات لا يهدف إلا لتحقيق مصالح كلّ دولة وفق منظورها الخاص.

وهذا ما يفسّر الموقف الرّوسيّ الغريب، فروسيا التي صمتت صمت الأموات إزاء الثورات في تونس ومصر واليمن، وقامت بدور المعارض المؤيد في ليبيا، وقفت سداً منيعاً في وجه الغرب داخل أروقة مجلس الأمن، مستخدمة حق النقد {الفيتو} ضد كل المحاولات لاستصدار قرار إدانة ضدّ مجازر الأسد، والتّلويح باستخدام القوّة إذا لم يتوقف، بل

تعلن وقوفها إلى جانب النّظام من خلال دعمه بالعتاد العسكريّ اللّازم للصّمود في وجه المعارضة والمنشقين عن الجيش السّوري، والذين أطلقوا على أنفسهم الجيش السّوري الحر، فروسيا تنظر إلى سوريا باعتبارها حليف استراتيجي في هذه المنطقة، فهي تحتضن أكبر قاعدة عسكرية روسيّة في هذه المنطقة في اللاذقية، بالإضافة في التوغّـل في كلّ من العراق ولبنان وإيران، مما يتيح لها مناطق دفاع استراتيجية، ومنافذ بحريّة تفتقد لها روسيا، وترى كذلك روسيا في الملف السّوري نافذة لعودة التّأثير الرّوسيّ كقوة عظمى لا يمكن تخطيها، وذلك عـقب الشّعور القوميّ الرّوسي مجدداً.

على أنّ أمريكيا وحلفاءها وجدوا ضالتهم في الموقف الرّوسي، لتبرر عـدم تدخلهم في سوريا، فأمريكا تعلم أنّ روسيا غير قادرة على مواجهة تحالف غربيّ، أو على الأقلّ إنّها غير راغبة بخوض حرب نيابة عن النّظام السّوري، وروسيا تعلم أنّ أمريكا وحلفاءها غير عاجزين عن تجاوز مجلس الأمن والذهاب بمفردهم اتجاه عمل عسكريّ ضدّ سوريا ونظامها الحاكم، وليست تجربة احتلال العراق عام ٢٠٠٣م أو التّدخل العسكريّ في ليبيا عنا ببعيد، وكأنّ الأمر تبادل للأدوار، وتسجيل للمواقف، على حساب دماء أبناء الأمة العربية المسلمين.

لكنّ لغة المصالح والتّحالفات وحدها من يتحكم بمسار الأمور، فما هو محرّم في لحظة ما أو مكان ما، محلّل في ظروفٍ مختلفة، بل أنّ

الحكم قد يختلف بين الفينة والأخرى على نفس الموضوع، وهذا ما قد يحدث في المستقبل إذا ما تم تأمين البديل الآمن لحكم سوريا، واستطاعــت روسيا والغرب الوصول إلى تسوية تلبي أطماع كلّ طرف دون الإجحاف بالطرف الآخر، وإلا فالبديل هو حرب أهليّة في سوريا ، تؤخر البلاد وتدمّرها تمهيداً لتقسيمها إلى أربع دويلات : الأولى علويّة، والثانية درزيّة، والثالثة سنية وأخرى كردية، وهو المخطط الاستعماري القديم الذي رفضه أحرار سوريا.

هذا على المستوى الدّولي، أما على المستوى الإقليميّ ، فقد كان أكثر غرابة وعجبا، بداية من تركيا التي وقفت موقف المتفرّج إزاء ما يدور في الوطن العربيّ مع بعض الدّعم الإعلامي بعد رجحان الكفّة لصالح طرف من الأطراف، إلى أن كان التّحول المفاجئ بتفجير الثّورة في سوريا، لتعلن تركيا الدّعم اللامحدود لها، تركيا الهادفة إلى الانضمام إلى الاتّحاد الأوروبيّ، والعضويّة في حلف النّاتو، وثاني دولة في المساهمة به تمويلاً وجنوداً، والدّولة الحدوديّة المجاورة، والتي اقطعها الغرب لواء الاسكندرونة السّوري منذ عام ١٩٢١م، وتشارك مشكلة الأكراد المطالبين بالانفصال، وتهدف من وقوفها هذا الموقف، طرح نفسها كقوّة مؤثّرة في المنطقة، سواء أمام الدّول الغربيّة، وبذلك تكون أهلاً لشراكتهم، أو أمام الشّعوب العربيّة، من خلال المساندة لمطالب الجماهير، وبذلك تكسب احترام وتقدير هذه الشّعوب، هذا بالإضافة إلى الفائدة الاقتصاديّة التي ترنو لها تركيا، وكذلك لم يغب عن خلد القادة الأتراك أنّ المستفيد المحتمل من هذه الثّورة

هم جماعة الإخوان المسلمين، مما يعني أن حليفا استراتيجيّا لحزب التنمية والعدالة الإسلامي {كما يسمى}، سوف يسهل الوصول إلى الغاية المنشودة، كلّ ذلك ألزم حكام تركيا التصرف بهذا الشكل.

وكان الموقف الإيراني على النّقيض لتركيا ، الذي يرى في نظام الأسد شريكاً استراتيجيّا، وخط دفاع أوّل عن إيران يُمكّنها من نقل أيّة معركة من أبواب طهران إلى أبواب تل أبيب على الفور، وكذلك بوابة لنشر الفكر الشّيعيّ في المنطقة العربيّة، باعتبار أنّ الطّائفة العلويّة هي من يمسك بالمقاليد في سوريا، وكذلك هي شريان الحياة للطّائفة الشّيعية في لبنان وحزب الله من خلال تأمين السّلاح وخطوط الإمداد، ومخافة وصول جهات متحالفة مع الغرب عموماً وإسرائيل خصوصاً، بهذه السلة من الامتيازات وقفت إيران إلى جانب النّظام السوري، مع ما أكّدت عليه من ضرورة البدء بالإصلاح الفوري، فحاولت التّوسط بين المعارضة والنّظام سواء من خلالها مباشرة، أو من خلال أدواتها كحزب الله وحماس، على أنّ فشل إيران في ذلك جعلها تساند النّظام، وقد أسر الجيش السّوري الحر مقاتلين إيرانيين في صفوف قوات بشار الأسد، وقاموا بتسليم أحدهم إلى تركيا وقام الجيش الحر بمبادلة العديد منهم بمقاتلين له.

إنّ إيران قد رأت أنّ ما حدث ويحدث في سوريا إنّما هي مؤامرة تقودها أمريكا وحلفاؤها في المنطقة، وإسرائيل وقطر والسّعودية، وهذا التّصور أدى إلى اعتبار كلّ من يسعى للتّحرر من قبضة الظّلم والاستبداد

الأسدي، خائن ينفّذ أجندة إسرائيل وأمريكا ويستحقّ القتل، هذا الموقف مناقض تماماً لموقفها من التّحركات في البحرين، والذي اعتبرت السّكوت عن الممارسات القمعيّة التي مورست ضدّ الثّوار في البحرين وصمة عار في جبين الإنسانيّة، واعتبرت أنّ من حقّ البحرينيين تقرير مصيرهم بأنفسهم من خلال ممارستهم، واختيار ممثليهم، والمشاركة في إدارة شؤون البلاد.

وغيرها من المطالب التي رأت فيها إيران حقوقاً لا يمكن التّنازل عنها، فلماذا هذا التّناقض رغم تشابه المطالب؟ وإن كان من الظّلم اعتبارهما متشاركتان في الظّروف ، فالقمع مهما بلغ في البحرين، لا يذكر أمام الإرهاب الذي يجري في سوريا.

وعربيّاً كان التّدخل مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بطبيعة العلاقات العربيّة، وفي ذلك حَدّث ولا حرج، فمن خلافات على الحدود، ودعم للمعارضين، والمزايدة في المواقف السّياسيّة، والاختلافات في الولاءات، إلى المصالح المتناقضة، كلّ ذلك وأكثر حكم هذه التّدخلات.

فالسّعودية وفّرت الملجأ الآمن للرّئيس التّونسي زين العابدين بن علي، وطالبت مع دول أخرى من أمريكا عدم الضّغط على مبارك من أجل التّنحي، وتوسط لحل الأزمة اليمنية وفق آلية تحفظ كرامة ومكانة الرّئيس اليمني السّابق علي عبد الله صالح ، كلّ ذلك ما كان إلا بدافع العلاقات المميّزة والاحترام المتبادل بينهما وبين هذه الأنظمة، بينما تدخلت مع دول

الخليج بالقوّة العسكريّة المباشرة من خلال قوات درع الجزيرة،([1]) بهدف وضع حدّ للنفوذ الإيرانيّ في المنطقة من وجهة نظر السّعودية وجارتها، وخوف من امتداد هذه الثورة إلى دولهم، فالمصالح مشتركة والمصير واحد، لكن كلّ ذلك كان منافياً لموقفها من الثّورة في سوريا، حيث وقفت بكل ثقلها من أجل دعم وتسليح المعارضة، في مواجهة النّظام وجنّدت وسائل إعلامها لشنّ حرب على هذا النّظام، وتبعها في ذلك دول الخليج ،وذلك عائد إلى العلاقات السّيّئة التي تربط نظام الأسد بحكام الخليج وعلاقة هذا النّظام بإيران وتدخلاته في لبنان كان أهمّ أسباب هذه العلاقة المتوترة.

فتناقض الموقف السّعودي يتجلى بين اعتبار الثّورة في البحرين مؤامرة فيما هي ثورة شرفاء في سوريا فما سبب هذا التّناقض؟!!

على أنّ قطر تميّزت بين نظيراتها في الخليج بدورها، سواء بالمشاركة المباشرة في العمليّات العسكريّة ضدّ قوات القذّافي، وتسليح المعارضة اللّيبية، ومحاولة انتهاج ذات النهج في سوريا، أو بتوفير أكبر قاعدة إعلامية من خلال قناة الجزيرة الإخبارية، وما أدته من خدمة لأجندة ملّاكها ومسؤوليها وتابعيها، وذلك بهدف انتزاع مكانة إقليميّة مميّزة لها لتدخل في السّباق المحموم بين الدول التي تسعى لبسط نفوذها في المنطقة، وهذا جعل البعض يضع علامات استفهام حول هذا الدّور بسبب احتضان هذه

---

[1] قوات درع الجزيرة:- الجيش المشترك لدول مجلس التّعاون الخليجي، ومكوّن من كلٍّ من السّعودية وقطر والكويت والبحرين والإمارات العربيّة وسلطنة عُمان.

الدّولة أكبر قاعدة عسكريّة أمريكيّة، واعتبار أنّ قطر ما كانت لتسعى إلى هذا الدّور لولا الدّعم من قبل بريطانيا، مع العلم بأنّ دول الخليج بشكلٍ عام، والبعض من امراء السّعودية عملاء لبريطانيا، ولكن يتمشّون مع السّياسة الأمريكية، ومسايرة لها، وللحفاظ على كراسيّهم مع تحيّن الفرص للعمل بما تراه بريطانيا، وتنفيذًا لسياستها.

إنّ هذه المواقف المتناقضة عربيّاً وإقليميّاً تظهر مدى تأثّر التّدخّلات في السّاحات الثّائرة وفقاً لاعتبارات طائفيّة واقتصاديّة وأمنيّة وسياسيّة، بالإضافة إلى الصّراع على بسط النّفوذ، مما أدى هذا التناقض في المواقف للتحوّل من ثورة إلى أخرى.

أما دوليّاً: فإنّ المصالح وحدها هي من تتحكم بالمواقف، وبذلك نرى أنّ الفرق شاسع بين ما يطرح من شعارات عن الأخلاق والكرامة الإنسانيّة والمبادئ الديمقراطيّة والحريّة، وبين أهداف الدّول الحقيقيّة البعيدة كلّ البعد عن معاني هذه الشّعارات، بل تصل في بعض الأحيان إلى مناقضتها كليّاً، فالدّول تبني مواقفها بناءً على مصالحها، لا بناءً على ما ترفعه من شعارات، فالشّعار في خدمة الهدف وليس العكس، وقد تتغيّر مواقف هذه الدّول، فالصّديق اليوم قد يصبح عدوا في الغد، وعدو اليوم قد يصبح صديقا في الغد، وهذا ما أكّده رئيس الوزراء البريطانيّ إبّان الحرب العالميّة الثّانيّة، عندما قال { ليس هناك أصدقاء دائمين، ولا أعداء دائمين ، مصالحنا وحدها هي الدائمة}.

وفق هذا المبدأ تُسَيَّر العلاقات بين الدّول، إذ تنظر كل دولة إلى الدّول الأخرى من منظار المصالح المشتركة أو المتناقضة، فلا وجود لكلّ الشّعارات الرّنّانة إلا بمقدار ما يخدم مصالح الدّولة السّياسيّة أو الاقتصاديّة أو الأمنية أو الاجتماعية، أو غيرها، لذلك على من يريد الاستفادة من مواقف الدّول، فعليه إتقان لغة المصالح ليصبح مؤثرا في الواقع الذي يعيشه، فلا يمكن أن يجد من يقول له خذ حقّك ، طالما أنّ مصالح الدّول لا تتطلب ذلك.

فعلى المواطن العربيّ التّفكير جيداً بكلّ مساعدة تقدّم من أيّ طرف، مهما غلّفت من شعارات، ممعناً النّظر بكثير من التّفكير والتّدقيق للأهداف الحقيقيّة الكامنة وراء هذه المساعدة، فالتّجربة العربيّة حاضرة، والذّاكرة مثخنة بالجراح والألم والمرارة على هكذا تدخّلات، والتّاريخ بأحداثه أكبر شاهد في هذا المضمار، هذا فيما يخصّ الدّول.

أما المؤسّسات الدّوليّة وبالأخصّ جامعة الدّول العربيّة ومجلس الأمن، واللتان تتحركان بأوامر الدّول الأعضاء المنتسبين لها، وفق آليات وقوانين تُحدد عملها، فلم تكن غير تجسيد لهذه المصالح.

فالجامعة العربيّة كانت المظلة التي شرعـت باستصدار قرار من مجلس الأمن الدوليّ ضد النّظام الليبيّ، الذي مهّد له بتجميد عضوية ليبيا([1]) من الجامعة، والتي سعى معمّر القذّافي - بكون أنّ بلاده الرّئيس للقمة- إلى تعـطيل عملها بأكثر مما هو معطل، ولتفادي ذلك أنشأ العرب لجنة وزاريّة ترأسها قطر، وبالتّنسيق مع أمينها العام عمرو موسى، ومن بعده نبيل العربي، وكان الهدف من وراء تشكيل هذه اللّجنة، البحث عن غطاء للانتقال بالملف الليبي ّإلى أروقة مجلس الأمن بذرائع كانت الأنظمة أوّل من ساهم في صياغتها، فقد اعترضت الجامعة وصُناع القرار العرب، بحجة أنّ مبادئ الجامعة لا تتيح التّدخل العسكريّ للدّول الأعضاء ضدّ دولة عربيّة أخرى عضو فيه([2])، وبالتالي استحالة اتخاذ قرار يحسم أيّ خلاف عربيّ بأيدي عربيّة، وكأنّ مبادئ هذه الجامعة جاءت من كوكب آخر، ولعله نص مقدس لا يمكن المساس به أو التّعديل عليه، ولكن للسّياسة والمصالح قوانينها، التي تخرجانها عن منطق المعقول أمام هذه المعضلة، لذلك قرر الوزراء العرب الذّهاب إلى مجلس الأمن من أجل استصدار قرار بفرض حظر جويّ على الأجواء الليبيّة، بالإضافة إلى عقوبات اقتصاديّة على نظام القذّافي، إنّ

---

[1] ليبيا استلمت رئاسة القمة منذ آذار ٢٠١٠م وكانت تَنتهي رئاستها في آذار ٢٠١١م حيث كان من المقرر أن يتسلم العراق هذه المهمّة، إلا أن معمّر القذافي قرّر في ٢٠١١/٢/١٩م تأجيل انعقاد القمّة ، وبذلك بقيت ليبيا في رئاسة القمّة حتى آذار من العام ٢٠١٢م.

[2] مع أنّ الجامعة العربيّة أرسلت قوات سوريّة إلى لبنان للفصل أبّان الحرب اللبنانيّة الأهليّة عام ١٩٧٦م سمّيت بقوّات الرّدع العربيّة.

جُلّ ما قدمته الجامعة العربيّة للشّعب الليبي، تجميد عضوية ليبيا من الجامعة وعقوبات اقتصاديّة ودبلوماسيّة.

وأيضاً هذا ما قدّمته الجامعة العربيّة لوقف حمّام الدم في سوريا، فشاركت ليبيا في تجميد العضويّة والعقوبات الاقتصاديّة والدبلوماسيّة، بالإضافة إلى إرسال بعثة مراقبين بالاتّفاق مع النّظام السّوري تم إفشالها لاحقاً، وقرار بالتّوجه إلى مجلس الأمن لاستصدار قرار ضدّ نظام الأسد، الأمر الذي حالت دونه كلاًّ من روسيا والصّين {وهذا برضى من أمريكيا لأنّه يخدم هدفها في سوريا حتى تكرّر ما حصل في اليمن من تسليم الحكم لشخص موالٍ لها ، ومن نفس النّظام السّابق ، وهو المشير عبد ربه منصور هادي([1])، وإبقاء الرّئيس علي صالح في اليمن وهذا ما عمدت أمريكا على تحقيقه في سوريا أيضاً، لعدم تحقيق الثّوار أيّ نجاح لتزرع اليأس من الثّورة ، وإبقاء النّظام قائماً ولو بنائبه، وذلك تكرار لما حدث في اليمن}.

ولعلّ المتتبّع لدور الجامعة العربيّة، يرى انعدام هذا الدّور في الثّورتين التّونسيّة والمصريّة، والاكتفاء بدور المُبارك للخطة الخليجيّة لحلّ الأزمة في اليمن، والصّمت إزاء ما حدث في البحرين وبذلك يمكن القول، أنّ

---

[1] انتخب نائباً لرئيس حزب المؤتمر الشعبي العام الحاكم، وعيّن رئيساً للّجنة العليا للاحتفالات. وفي ٢٠١١/٦/٥ فوضه الرئيس اليمني علي صالح بإدارة البلاد خلال فترة علاجه في المملكة العربية السعودية بعد إصابتهِ في محاولة اغتياله ، وحتى عودته إلى أرض اليمن يوم ٢٠١١/٩/٢٣م.

دور الجامعة العربيّة في ليبيا وسوريا قد أفرغ من إمكانية التّأثير الفعليّ، والاقتصار على إضفاء الشّرعيّة على أهداف بعض الدّول والمتمثلة بإضفاء الشّرعيّة على التّدخل الخارجيّ ، وهذا يدلّل على عجز الدّول العربيّة عن طرح حلولٍ قادرة على تنفيذها بنفسها، فلا يبقى إلا خيار اللّجوء إلى الغرب ومؤسساته، وهو هدف وضعته الدّول الاستعماريّة يوم كان لها اليد الطّولى في إنشاء هذه الجامعة عام ١٩٤٥م.

أما مجلس الأمن فهو مرتهن بإرادة عصابة الدّول الخمس الدّائمة العضويّة، والتي تضمّ أمريكا وفرنسا وبريطانيا وروسيا والصّين، والتي يمكن لأيّ منها تعطيل أيّ قرار برفع اليد عند التّصويت، عملاً بحقّ النّقض {الفيتو} أما العشر الباقية فهي أسيرة لرغبة هذه العصابة، وذلك أنّها متغيرة كل عامين بالإضافة إلى عدم قدرتها تعطيل أيّ قرار لا ترضى عنه أيّ من الدّول الخمسة الدّائمة العضويّة.

والنّاظر إلى مجلس الأمن يرى أن ّمهمّته انحصرت، في إضفاء الشّرعيّة على الأهداف الأمريكيّة وإضفاء الشّرعيّة للاعتداءات التي ترغب القيام بها ضدّ الدّول الأخرى، بما يخدم مصالحها وحدها، وبالأخصّ عـقب انهيار الاتّحاد السّوفيتيّ السّابق عام ١٩٩١م، وبروز الولايات المتّحدة في السّاحة الدّوليّة كقطب واحد، فلم يعد من الجائز إطلاق مسمّى مجلس الأمن الدّوليّ على هذا المحفل، بل مجلس القطب الواحد أو – المجلس الأمريكي–، لقد أصبح مجلس الأمن مجدّداً أداة يجسد الرّغبة الأمريكيّة خصوصاً،

والغرب عموماً على الأرض، فما أن عُرضت القضيّة اللّيبيّة على هذا المحفل حتى أصدر قراره(رقم ١٩٧٠)، وليطلب من قوات حلف النّاتو العمل على تنفيذه على أرض الواقع، وذلك بفرض حظرٍ جويٍ على الأجواء اللّيبيّة، وعلى الرّغم من وجود قوانين تضبط عمل المجلس، وتمنع من تجاوز الصّلاحيات التي تفوّض لأيّ قوّة أمميّة، أو لحلف الناتو، إلا أن أمريكا وحلفاءها قادرون على تجاوز ذلك وتحقيق هذه المصالح بمنطق -البلطجة- حقّ القوّة.

حيث تجاوز حلف النّاتو التفويض الممنوح له في تنفيذ قرار١٩٧٠، كما قال مندوب روسيا في مجلس الأمن أثناء إلقائه كلمة دولته يوم عرض الملفّ السّوري على مجلس الأمن حيث قال: {{ لقد تجاوز حلف النّاتو التفويض الممنوح له، وروسيا لن تنخدع مرّة أخرى، لذلك قرّرت بلادي استخدام حقّ النّقض (الفيتو) ضدّ مشروع القرار اليوم}} وكرّر ذلك في مؤتمر صحفي أيضاً، ومن هنا ظهرت جلياً حقيقة نوايا الناتو، المتجسدة في الرّغبة بتحقيق أهداف أعضائه، وما أراد أعضاء الحلف من مجلس الأمن إلا إضفاء الشّرعيّة لهذا التّدخل، بينما كان الوضع في الموضوع السوري مختلفا، حيث استخدمت روسيا والصّين حقّ النّقد (الفيتو) ضدّ أيّ مشروع قرار يدين سورياّ، ويطالب بوقف المجازر هناك، وكما ذُكر آنفاً، فإنّ الرّفض الرّوسيّ لأيّ قرار يهدّد باستخدام القوّة، أو وضع هذا القرار

تحت الفصل السابع([1]) من ميثاق الأمم المتحدة، وهذا تعليل لمخاوف روسيا في إساءة تفسير القرار واتّخاذه ذريعة لشنّ عدوان على النّظام في سوريا.

ومن هنا يتّضح لنا أنّ مجلس الأمن عاجز عن تجسيد الإرادة الدّوليّة الحقيقيّة، فعلى سبيل المثال وقفت أمريكا حائلاً أمام رغبة العالم أجمع، عندما استخدمت حقّ النّقض (الفيتو) ضدّ مشروع قرار يدين الاستيطان الإسرائيليّ في الأراضي الفلسطينية([2])، والذي صوّت لصالحه ١٤ دولة من أصل الدّول الـــ١٥، وفي مثال آخر، فقد هدّدت الولايات المتّحدة باستخدام حقّ النّقض (الفيتو) إذا ما تقدّمت فلسطين إلى مجلس الأمن بهدف نيل العضويّة في الأمم المتحدة([3])، بل مارست ضغوطا سياسيّة واقتصاديّة ضدّ بعض الدّول التي كانت ضمن الدّول الـــ١٠ غير دائمة العضويّة، من أجل منعها من التّصويت لصالح عرض الطّلب في المجلس، وطرحه للتّصويت عليه، حيث يحتاج ذلك إلى تسع دول على الأقل، فكيف يمكن لنا أن نتصوّر أنّ مجلس كهذا قادر على تجسيد الرّغبة الدوليّة في أيّ قضية، هذا الأمر ينطبق على المؤسسات الدّوليّة الأخرى، وإن كان بصورة أقل ّحدة، وأساليب مختلفة، فمثلاً يمكن ربط التّوجه إلى المحكمة الدّوليّة

---

[1] الفصل السابع :- هو مادة في مجلس الأمن فهي الفصل الذي يجيز للمجلس استخدام القوّة إذا لم تلتزم الدّولة بمضمون قراره.

[2] حيث يعتبر القانون الدّولي الأراضي الفلسطينية التي احتلت عام١٩٦٧م أراضي محتلة بموجب {قرار٢٤٢}.

[3] حيث على الدّولة التوجه إلى مجلس الأمن أولاً والطلب منه الموافقة على عضويتها، وهو بالتّالي يرفع توجهه إلى الجمعيّة العموميّة بذلك.

بالحصول على قرار من مجلس الأمن، مما يعيد الأمور إلى الدّائرة الأولى، وهذا يؤكّد شلل هذه المؤسسات أمام مصالح الدّول الغربيّة، دون اعتبار للمبادئ والقوانين الدّوليّة وقواعد الميثاق للأمم المتّحدة، فلا شيء يقف أمام المصالح، وكلّ الشّعارات والمبادئ توضع لتحقيق هذه المصالح، إذن هي لغة المصالح التي لا تفهم إلا ذات اللغة.

الباب الخامس

ثورة السّلطة الرّابعة

ليس جُزافًا أطلق على الإعلام مصطلح السّلطة الرّابعة، وذلك لما يستطيع الإعلام تحقيقه، بسبب دخوله إلى كلّ بيت، بل إلى كلّ قلب ينبض بالحياة، - والتكنولوجيا هي التي أوصلته ونشرته هذا الانتشار- ولعلّ الدّور الأبرز في الثّورات العربيّة كان للأعلام بوسائله المرئيّة والمسموعّة والمكتوبّة وفروعه الرّسميّة وشبه الرّسميّة والمستقلة، والفضائيات المحليّة والإقليميّة والدّوليّة، والذي يُمكن أن يفرد له كتب بأكملها، إذا ما أراد الشّخص الإحاطة به من كلّ جوانبه، لأنّ الإعلام لَعِبَ في هذه الثّورات دور البطولة، وإن كانت بَالِغةِ الصّعوبة، فهي في واقع الأُمر أشبه بالمستحيل، على أنّه لا يجوز طرق باب الثّورات العربيّة دون الرّجوع إلى دور الإعلام ولو في أضيق حدوده.

وبالنّسبة إلى الإعلام الرّسميّ في بلاد الرّبيع العربيّ، بكلّ وسائله انتهج سياستان، الأولى إبراز انجازات الرّئيس والمتحدّث عنها بمناسبة ودون مناسبة، ومحاولة إظهار أنّ حالة الدّولة على أحسن ما يرام، بالإضافة إلى التّجاهل التّام للتعتيم على ما يدور في الدّولة، وأنّ هناك مجموعات من الشّبان العاطلين عن العمل أحياناً، والخارجين عن القانون أحياناً أخرى، يحاولون إثارة الاضّطرابات في الدّولة، والآن العيون السّاهرة

تعالج ذلك بالحكمة والصّبر والرّويّة، وبمساعدة الإعلام على إظهار الأمور على هذه الشّاكلة، وبروز غياب الإعلام الغير تابع للدّولة، سواء بصورة رسميّة أو غير رسميّة، كما في تونس([1]) وليبيا وسوريا، حيث أنّ الكثير من الفضائيات ممنوعة من العمل في هذه البلدان، أما إذا فشلت هذه السّياسة، فتنتقل إلى السياسة الأخرى القائمة على أنّ الدّولة ونظامها الحاكم يتعرضان إلى مؤامرة تقودها مجموعة ضالّة مضلّلة خائنة وعَمِيلَةٌ ، تعمل لصالح أجندة تخريبيّة خارجيّة، وتسعى إلى تهديد أمن الوطن والمواطن، مستعينة بأشرطة تبثها محطات التّلفزة الحكوميّة، تظهر أفرادا يعترفون بأنّ دولة أخرى معادية أو أجهزة مخابرات ما أو جهة ما أو شخص ما قد غرّر بهم، ودفعهم إلى القيام بأعمال من شأنها تقويض السّيطرة على الدّولة، وأنّهم تلقوا الأموال والتّدريبات والعتاد اللّازم لذلك، في المقابل تبث هذه القنوات صور المظاهرات المؤيدة للقائد -المفدى ورمز عزّة البلاد-، معتمدة على إظهار أنّ المسيرات التي تحمل صور الرّئيس والهاتفة بحياته، والمندّدة بالمؤامرة التي تدبّر ضدّه، أكبر من أن يتمّ تغطيتها من وسائل الإعلام المتواجدة على أرض الوطن، يترافق ذلك مع جوقة من الكُتّاب والمحللين الذين يقع على عاتقهم - إظهار الحقائق للجماهير-، وفق ما يراه النّظام الحاكم وأدواته، بالإضافة إلى التّحذير من متابعة الوسائل الإعلاميّة العدائيّة، التي تبثّ الشّائعات والسّموم والأخبار الكاذبة المدسوسة، أمّا الإعلام الرّسميّ للدّول الأخرى، فتارةً يساند النّظام الحاكم في دولة ما، وتارة يساند

[1] فقد ذكر مراسل العربيّة يوم ٢٠١١/١/١٤م أنّ هذا أوّل بث مباشر لقناة فضائية في تونس.

الثوار ومطالبهم، وأخرى يتجاهل الأمر برمته، كل ذلك مرهون بالموقف الرّسمي للدّولة المعينة، ووفق ما تقتضيه المصلحة العليا للبلاد.

يتشابه الإعلام الرّسمي في هذه السّياسات مع الشبه رسميّ، والمقصود بالإعلام شبه الرّسميّ هو تلك الوسائل الإعلاميّة التي تنطق برأي الحكومة، وهي لا تتبع لها رسميّاً، مثل الوسائل التّابعة للحزب الحاكم أو تلك التي يمتلكها أشخاص مقربين من النّظام، أو تلك التي ممموليها رجال أعمال مقربين من النّظام.

وهناك الإعلام المستقلّ، أي تلك الوسائل الإعلاميّة التي لا تتبع لأي ّدولة أو نظام، أنّما هي لمجموعة من المستثمرين، أو التابعة لمؤسّسات المجتمع المدنيّ، وإن كان من المبالغة الاعتقاد باستقلاليتها استقلالية تامّة، فهي بين سندان سّلطات الحكومة، ومطرقة المموّلين ورأس المال، فلا بدّ أن يكون لأحد هاتين السلطتين اليد العليا، لكن من الجدير القول بأنّه أكثر حريّة من سابقيه في التّعاطي مع الأحداث وتحليلها، وبالتّأكيد ليس بما يتعارض ومصالح ملّاكها.

إنّ التّعاطي مع الثّورات في بلدان الرّبيع العربيّ لم يكن على وتيرة واحدة، ولا بذات القوّة ولم يكن له ذات التّأثر، ففي غياب الإعلام عن السّاحة منذ ١٧/١٢/٢٠١٠م، أي قبل أيام على انتهاء الثّورة ، والسّبب كما ذكر منع النّظام لوسائل الإعلام غير التّونسيّة من العمل على أرضه، الأمر الذي يمكن اعتباره إشارة على غياب المؤثّرات الإعلاميّة بشكل ما على ما

دار في هذا القطر العربي، أمّا في مصر، فقد كان الإعلام الرّسميّ وغير الرّسميّ منشغلاً على مدار السّاعة، في تغطية الأحداث الجارية منذ اندلاع الثّورة، فالبث المباشر لم ينقطع تقريباً عن ميدان التّحرير في وسط العاصمة المصريّة القاهرة، رمز الاحتجاج والاعتصام، بالإضافة إلى صور القمع والمواجهات بين المتظاهرين وأجهزة مكافحة الشّغب تارةً، والمتظاهرين ومؤيدين النّظام تارةً أخرى، لقد كان للإعلام بصمة واضحة وتأثير ملحوظ في هذه الثّورة، وذلك بسبب الانفتاح المصريّ على العالم الخارجيّ، ولعلّ الثّورة المصريّة، كانت الوحيدة المغطّاة إعلاميّاً من ألفها إلى يائها.

والدّور أكثر وضوحاً في حجم التّأثير الإعلاميّ، كان في محاولة التّأثير على الرّأي العام السّوري، وذلك من خلال العمل على بثّ مناشدات يطلقها أهالي الأحياء التي تتعرّض لبطش وقصف النّظام، فيما يندر بثّ أيّ لقطات للقتلى من الجيش ، والذين يسقطون بسلاح المعارضة، هذا بالإضافة إلى الإعلان عن أرقام سقوط الشّهداء بشكل مجمل دون التّمييز بين من سقط على يد النّظام والشّبيحة التّابعة للنّظام، وأولئك الذين سقطوا على أيدي المعارضة من الجيش، وإعطاء المساحة الكاملة لرجال المعارضة بكلّ أطيافها للتّعبير عن آرائهم وشرح وجهة نظرهم للعالم بشكل عام وللجمهور السّوري خاصة، فيما لا تتاح ذات المساحة لرجال النّظام للتّعبير عن آرائهم وشرح نظرتهم.

مع العلم بأنّ النّظام يمتلك الوسائل الإعلاميّة من فضائيات وغيرها مما يُمكنه من تبيان وجهة نظره، ولقد منع النّظام وسائل الإعلام الأخرى من تغطية الأحداث، مما أعطى وسائل الإعلام الخارجيّة من تغطية الأحداث عن طريق بث فيديوهات، ونقل للأحداث من قبل مراسلين محليين، ومما زاد حدّة التّأثير، أخذت وسائل الإعلام مثل الجزيرة والعربيّة كلّ يغطي الأحداث، على اعتبار سبق صحفيّ مع مراعاة وجهة نظر كلّ منها وتبعيّتها، فكلّ يركّز على عمل دعاية قبل بث الأحداث من خلال الفواصل الدّعائيّة، وبثّ المناظر المرعبة لما يقوم به النّظام من عمليات تقتيل وهدم للممتلكات ، والدّمار الذي ألحقه في البلاد مركّزة على ذلك، وليس بثّ مجرّد خبر، وهذا كان له الأثر الأكبر في شحن الرّأي العام ضدّ هذا النّظام المجرم والسّفاح، وهذا ليس تعاطفاً مع الشّعب السّوري، وإنّما لما يخدم أهداف كلّ من هذه الفضائيات ولتبعيتها لجهة معينة.

ولنرى مدى تأثير الإعلام على الرّأي العام، والجماهير في مختلف البلدان لسعة انتشاره على مستوى العالم، لذلك نأخذ مثال كيفية تغطية الأحداث الليبية ، فكان هذا الإعلام غير تابع للنّظام في ليبيا، لذلك غطّى الأحداث بشكل مؤثّر، فكان يبثّ صورا وفيديوهات عبر شاشات الفضائيات، للعقيد معمّر القذّافيّ هُدِفَ من ورائها إظهاره كمجنون أو فاقد الوعي، مما سيدفع بمزيد من المشاهدين اتجاه اتخاذ مواقف أكثر حدّة، وعدائيّة ضدّه، فقد نشرت جريدة القدس بحثّا أجرته إحدى الجامعات الألمانية جاء فيه : {لقد أثبت البحث أنّ النكات التّهكميّة كان لها أثر واضح

في تعبئة الجماهير أكثر مما كان للبيانات والمقالات التي نشرت، أو الخطب التي أذيعت، وذلك بسب تناقل هذه النّكات على لسان أكبر فئة من الجماهير وبالتّالي تُعِدُّ مستقبلها لتقبل رأيا لا يكون مؤيّداً له، بل إنّه يقوم بنقل هذا الرّأي شخصياً من خلال نقله لمثل هذه النّكات} وقد استدلّ البحث بما قال أنّه مثال حيّ حدث أثناء الحرب العالميّة الثّانيّة، فقد قام النّازيّون بإطلاق مقالات تهكّميّة كانت تهدف إلى إفْقَاد جماهير الخصم الثّقة بقيادتهم من خلال التّهكم عليهم، ممّا سيهزم أهمّ أركان الخصم، ألا وهو الجبهة الداخليّة، وقد أنشأ النّازيون مكتباً خاصّاً للقيام بهذه المهمّة وقّع على عاتقه وضع وإطلاق نكات على الخصم ونشرها، وأخرى تعزّز حالة الخوف والرّدع للجيش الألماني مما يرفع من معنوياتهم.

هذا البحث العلميّ يؤكّد مدى تأثير الجماهير بما تسمع، فمن المؤكد أيضاً أنّ التّأثير من خلال المشاهدة سيكون أكثر قوة، وهذا ما يدركه من يعمل في مجال الإعلام، لذلك دأبت المحطات الفضائيّة على بث كلّ تلك المشاهد بهدف إحداث التّأثير المطلوب في نفوس المشاهدين، وهذا ما أدركه النّظام الليبي، فقام بعمليات تشويش على بثّ الأقمار الصّناعيّة عـرب سات، ونايل سات وغيرها، في محاولة منه للتّقليل من حجم الأضرار النّاجمة عن هذا الأداء الإعلامي الموجه، هذا بالإضافة إلى تأكيده في أكثر من خطاب على أنّ بلاده تتعرّض إلى مؤامرة من قبل هذه الفضائيات، ذاكراً قناة الجزيرة الإخباريّة والعربيّة بالاسم، طالباً من اللّيبيين عدم السّماع لأكاذيبهم وشائعاتهم.

ومن هنا يفتح الباب على مصراعيه عند الحديث عن الإشاعات فقد كانت الإشاعة من وسائل الإعلام، والمهمة في التّأثير على الرّأي العام، وكان لها دور كبير في تغيير مجرى الأحداث بشكل مثير للعجب.

ومن الأمثلة الّتي تذكر هنا نرى أنّه عندما سرّبت شائعات حول خطاب مبارك ، الذي ألقاه يوم الخميس ٢٠١١/٢/١٠م، أنه سيتضمّن تنحيته عن الحكم، وكان يتضمن تفويض صلاحيّاته لنائبه عمر سليمان، لقد تسبّبت هذه الإشاعات برفع توقعات الجماهير، الّتي رأت في الخطاب خذلاناً لها واستهتاراً بمشاعرها، لذلك استشاطت غضباً، وقرّرت تصعيد المشهد فتصاعد الحراك الجماهيري إلى الواجهة، إذ بمجرد انتهاء مبارك من إلقاء خطابه، تحركت مجموعات متزايدة من الشّباب الذين أعلنوا رفضهم لمضمون الخطاب نحو القصور الرّئاسيّة([1]) رافعة الشّعار الشّهير {على القصر رايحين شهداء بالملاين} فقد أعدّت هذه الإشاعات الجماهير لاستقبال الإنجاز الأكبر والأهم، وبالتالي لم يعد مقبولاً لديهم ما هو أقلّ من ذلك([2])، وحادثة أخرى كان لها دور في تغيير مجرى الأحداث لا تقلّ عن سابقتها، وهي الإعلان عن اعتقال نجل العقيد معمر القذافي سيف الإسلام، الأمر الذي أدى إلى اعتراف عدد إضافي من الدول بالمجلس الانتقالي كممثل شرعي

---

[1] فقد حاصر أكثر من عشرين ألفاً من المتظاهرين قصر العروبة الرّئاسي في القاهرة، وعدد مماثل حاصر قصر رأس التين في الإسكندرية، وأدى ذلك إلى اندلاع مواجهات بين المؤيدين والمعارضين ، وذلك يوم ٢٠١١/٢/١١م.

[2] راجع الباب الثالث خلف الكواليس من هذا الكتاب.

لليبيين سياسيّاً، أما على أرض الواقع فقد أدى ذلك إلى انهيار في صفوف بعض الوحدات في الجيش الليبي الموالي للقذافي، ومما يؤكّد ذلك حديث السّيد محمود جبريل رئيس الوزراء في الحكومة المنبثقة عن المجلس الانتقالي الذي قال في معرض ردّه على سؤال لقناة العربيّة حول ذلك: {نعم كنا نعلم أنّه نبأ عارٍ عن الصّحة، إلّا أنّنا وجدنا فيه ما أدّى إلى انجاز سياسيّ وميدانيّ، فقرّرنا التّأخر في نفي النّبأ حتى استنفاذ كل فوائده المرجوّة}([1]) بالطّبع هاتان الحادثتان هما أمثلة على خطورة الإشاعة وما لم يُذكَر أعظم، فسلاح الإشاعة يعتبر أهمّ أركان الحرب النفسيّة، فالإعلام ميدانها المركزيّ، وما حدث في هذين المثالين خير دليل على ذلك.

أمّا في البحرين فكان الإعلام يتعاطَى مع التّحركات هناك بنوع من الخجل والتّعتيم قدر المستطاع، لكن دون أن يؤثّر ذلك على مصداقية الوسيلة الإعلاميّة، حيث تحاول كلّ وسيلة طرح نفسها كطرف محايد مهمّتها نقل الخبر دون تحيّز مما سيضاعــف عدد مشاهديها، ولذلك تحاول هذه الوسائل الإعلاميّة إدارة معركتها بحذر بين عدم خسارة مصادر تمويلها ومشاهديها، ولذلك نرى أنّ ما تم بثّه في بعض الفضائيات من موادّ مصوّرة عن التّحركات الجماهيريّة في البحرين، لم يعط الصّورة الحقيقيّة، ولم يقصد منها إظهار مدى القمع الذي تعرّض له الثّوار هناك، على الرّغم من إقرار اللّجنة التي شكلّها ملك البحرين، بأن ّالمتظاهرين تعرضوا لبطش الأجهزة

[1] قناة العربية الإخبارية سقوط طرابلس في أيدي الثوار ٢٠١١/٨/٢١م.

الأمنيّة هناك بشكل غير مبرر، وأنّ هذه الأجهزة استخدمت القوة بشكل مفرط، هذا بالإضافة إلى أحكام الإعدام التي صدرت بحقّ العديدين ممن قادوا هذه التّحركات، فبالرّغم من كلّ ذلك لم يركز الإعلام على هذه التّجاوزات ، ولم يشكلّ ما بثّه أيّ خطر على المملكة.

أمّا في اليمن، فقد كانت وسائل الإعلام تعمل بنوع من الإرباك والتّباطؤ، الذي لم يمنع من بثّ صور الاعتقالات والصّدامات، وإن كان بشكل متقطّع وغير مركز، وذلك إمّا بسبب انشغال الإعلام بالثّورات المشتعلة في أكثر من بلد عربي، وإمّا بسبب عدم رغبة الفضائيات تسليط الأضواء على هاتين الثورتين لقربهما من دول الخليج، الأمر الذي قد يؤدّي إلى انتقال هذه العدوى إلى هذه الدّول، فلا الأنظمة الحاكمة معنية بمعاداة الإعلام وأصحاب رؤوس الأموال، ولا الإعلام راغب باستعداء أمراء النّفط خوفاً من خسارة أموالهم، هذا بالإضافة إلى اعتبارات تختصّ بسياسات كلّ وسيلة على حدة ، -مع العلم بأنّ هذه الفضائيات يمتلكها أمراء من الخليج والسّعوديّة- سواء البرامجيّة أو الرّسائل الإعلاميّة الرّاغبة كلّ منهما إيصالها إلى الجمهور، لذلك نرى هذا الموقف في هذه المنطقة على الخصوص.

كلّ ما ذكرناه يعطينا صورة واضحة عن أهميّة هذا الجانب من الأداء الإعلاميّ المؤسساتيّ، والذي يُحكم بقواعد وقوانين لا يمكن تجاهلها تحت أي ظرف من الظّروف، فالحياديّة وإعطاء مساحات زمنيّة متساويّة، وعرض جميع وجهات النّظر، والبعد عن الشّخصنة وعدم التوجيه إلى آراء

معينة، تعتبر من أهم ّهذه القوانين والأدبيات الصّحفية الواجب إتباعها، بنقل الخبر وليس صناعته في تغطية الأحداث، لأنّ الحقيقة ملك المشاهد، وهو أمرٌ لم نلاحظه في إعلامنا العربي.

على أنّ هناك علامة استفهام كبرى تتمحور حول من هو المخوّل في تحديد المعايير والضّوابط والأسس لهذه الرّكائز؟ حيث نرى أنّ ذلك يتغير من وسيلة إلى أخرى، ومن منطقة إلى أخرى ومن صحفي إلى آخر، فما تضعه وسيلة إعلامية من خطوط عامّة لسياستها في تغطية أحداث منطقة ما، تعتبرها نوعاً من الحياديّة والمصداقيّة، هي غير تلك الخطوط التي تضعها لتغطية ذات الأحداث في منطقة أخرى، وأنّ الأداء الصّحفي في منطقة لا تربطه فيها علاقة، من مواطنة أو علاقات مميّزة، وليس بالضرورة أن تكون بذات الأداء في منطقة مرتبط بها، وهذا الأمر طبيعي، لكنّ الغريب أن يُحكم على أداء هذا الصحفي في كلتا الحالتين بالحياديّة والمصداقيّة، بل أنّ المعاير قد تختلف في نفس الوسيلة وذات الصحفيين والدّولة، لكن بتغير النّظام، فالتّلفاز المصريّ تغيّرت مواقفه من مؤيد لمبارك إلى معاد له بعد تنحّيه وسقوطه عن الحكم - فهذا التّناقض في المواقف يظهر مدى تبعيّة الصّحافة ووسائل الإعلام- فتتغير المواقف والمصطلحات مع أنّ المذيعين لم يتغيروا، بل إنّ هناك من أطلق على الإعلام المصريّ، {إعلام ما بعد الثّورة}، فمن كانوا مشاغبين ومثيري للفتن، وعملاء لجهات خارجية، وخارجين عن القانون وأسياد للكذب، أصبحوا أبطال يستقبلون كمفجّري الثّورة، وطلائع التّغيير في المجتمع، وقادة المستقبل، والسّؤال هو

أيّ من الحالتين كان الإعلام المصريّ محايداً؟ فهذا ما ينطبق على كلّ وسائل الإعلام؟!!!

ولقد ظهر نوع آخر من الإعلام، وبقوّة في ظلّ هذه الثّورات لم يُلْتَفَتُ إليه سابقاً، يمكن أن نسمّيه الإعلام الفردي، إذ أصبح بإمكان أيّ شخص أن يعمل كمصوّر يرصد بهاتفه النّقال لأيّ حدث، ويقوم ببثّه إلى أيّ مكان في العالم عبر الإنترنت، فقد كان ما بُثَ من مقاطع للفيديو المصوّرة من الهاتف النّقال من أكثر الوسائل تأثيراً وسرعة في الانتشار، فالمصوّر لمقطع فيديو لا يحتاج لأكثر من ضغطة زر لتصويره ونقل ما يصوّره إلى مئات الهواتف الأخرى، حتى دون الحاجة إلى دفع مال مقابل ذلك([1])، عبر نظام البلوتوث الذي ينقل ما يودّ إرساله إلى أيّ هاتف يحمل هذا النّظام إن كان مُفَعّلاً النّظام، وهكذا لن يكلّف المستقبِل أيضاً غير ضغطة زرّ واحدة من أجل رؤية ما استقبله جهازه، وقد أصبحت هذه الوسيلة الأكثر استخداماً في الحياة اليوميّة ، فلم يخلو هاتف نقّال من هذه الخدمة، بل إنّ البعض يمتلك أكثر من هاتف، فكلّ فرد يحمل هاتفه الخاص، مما جعل هذه الوسيلة أكثر فاعليّة، كون الأجهزة النّقالة فيها إمكانيّة التصوير، وهذه الميزة ودون لفت الأنظار لصغر حجم الكاميرات إذ يمكن للمصوّر أن يصوّر الحدث، والهاتف النّقال موضوع على جانبه، أو قد يضعه على شرفة منزل، فيظنّ من يشاهد الهاتف مصادفة أنّه معدّ للشّحن الكهربائيّ، ومن هنا تأتي استحالة ضبط

---

[1] أما إذا لم يرغب استخدام هذا النظام، فيمكنه إرساله بشكل موجة إلى هواتف معينة أو إلى شبكة الإنترنت مقابل مبلغ رمزي.

تسريب هذه المقاطع، هذا بالإضافة إلى أنّ من يقوم بعمليّة التّصوير غير ملزم بأخذ تصريح من أيّ جهة، كما الصّحفي أو المؤسسة الصّحفيّة الملزمة بذلك، وغير مضطر للكشف عن شخصيّته الحقيقيّة، مما يجعله غير ملاحق من قبل الأجهزة الأمنيّة، وتقلّل من المخاطر الجمّة التي تُحدق بالصّحفيّ التّقليديّ، بيد أنّ هناك سلبية لا يمكن تلافيها لهذا النوع من الإعلام، وهي عدم القدرة على التأكد من مدى مصداقيّة هذه المقاطع بصورة جازمة، سواء من حيث المضمون أو الزّمان أو المكان، ولذلك كثيراً ما نسمع متلازمة لهذه المقاطع قبل بثها من قبل المذيع في مقطع مصوّر {{لم يتسنّ لنا التّأكد من صحته}} مما يُمَكِّنُ من استخدام هذا النّوع من الإعلام لتمرير رسائل تخدم أهداف وأجندة جهات معينة، الأمر الذي يتطلّب منّا التّعاطي مع مثل هذه المقاطع بالحذر واليقظة، فلا يمكن تَصَوّر أنّ كلّ ما يبثّ صحيحاً، وممّا زاد في فاعليّتها، قيام العديد من الوسائل الإعلاميّة المرئيّة، بإعداد مواقع خاصة([1]) على الشّبكة العنكبوتية، تسهّل نقل هذه المقاطع وبثّها، وبالتّالي وصولها إلى المشاهد، فقد كانت هذه المقاطع في العديد من المواقف الشّاهد الوحيد على الحدث، والمصدر الوحيد للمعلومة أيضاً، وهناك لا بدّ من الوقوف مطوّلاً أمام بطل هذه الثّورات في التّواصل، إنّها الشّبكة العنكبوتيّة (الإنترنت)، والّتي كانت حاضرة، قبل وأثناء وبعد الثّورة،

---

[1] مثل موقع (أنا أرى) الذي أنشأته قناة العربية الإخبارية لهذا الهدف، وهناك العديد من الفضائيات لها مواقع لهذا الهدف ليزودها أي شخص بما يصوره من مقاطع فيديو لأحداث تحدث في أي بقعة من الأرض.

فكما ذكر سابقاً، كانت الدعوات للتظاهر تنطلق عبر مواقع التّواصل الاجتماعيّ (توتير و فيس بوك و يوتيوب) وغيرها من المواقع، من خلال جماعات شبابيّة ملّت حالة الاستسلام وقرّرت البدء بنفسها، ثمّ طرح ذلك للنّقاش، ثمّ تطوّر ذلك إلى دعوات للتّظاهر، والمفاجأة الكبرى كانت في حجم الاستجابة التي لاقتها هذه الدّعوات، فقد وصل عدد من تواصل عبر هذه المواقع وتفاعلوا مع دعوة التّظاهر في عيد الشّرطة المصريّة، أكثر من ٣٠ ألف شخص([١])، وقال بعض روّاد هذه المواقع أنّهم لم يتوقعوا أنّ هذه الأرقام حقيقية، وأنّ المشاركين المتفاعلين عبر العالم الافتراضي، سيشاركون فعلاً في المظاهرات، إلا أنّ الحقيقة أظهرت أنّ المشاركة أضعاف هذه الأرقام. وفي سوريا كان عدد من تجنّد للدعوات في بدء التّظاهر يوم ٢٠١١/٣/١٥م، إلى أكثر من ٢٥ ألف شاب، ثم البحرين واليمن والجزائر والأردن([٢])، بيد أنّ هذه الدعوات لاقت تجاوباً مذهلاً في العديد من المناطق ،ونجحت في إسقاط أكثر من دكتاتور عربيّ في بعض الدّول مثل مصر واليمن وليبيا، ولم تصل لحدّ الآن إلى غايتها لإسقاط النّظام في بعض البلدان بعد مثل سوريا، وهناك ما أخمدت في مهدها كما في البحرين

---

[١] بحسب أحد المشاركين في برنامج البيت بيتك على الفضائية المصرية عقب نجاح الثورة.

[٢] تداركت المملكتان المغربيّة والأردنيّة نفسيهما قبل فوات الأوان، إذ بمجرد انطلاق مظاهرات في كلا المملكتين مطالبة بالإصلاح، قام الملكين الحسن الثاني وعبد الله الثاني بسلسة من الإصلاحات خفّضت من حدّة التّوتر فيهما، كما أنّ المطالب لم تمسّ مكانة الملك والعائلة المالكة فكانت الاحتجاجات على الحكومة فقط، وكان الإخوان المسلمين في الأردن على رأس هذه المظاهرات وهم من كان يطالب بالإصلاح للحكومة وليس الملك.

والجزائر والسّودان والمغرب والأردن، واندثرت بشكل مفاجئ مثير للاستغراب والدّهشة كما في قطر.

ومما زاد في فعاليّة الإنترنت، هو طَرح مواقع خاصّة، وتقنيات لتجاوز أيّ عقبات قد تواجه مستخدمي الإنترنت من قطع التّواصل والإرسال، وهو إجراء دأبت الحكومات على اتخاذه([1])، فبمجرد انطلاق التّحركات والمظاهرات يقوم النّظام بقطع الإنترنت بهدف عدم التّواصل بين المنظمين ولإرباك خططهم، والحدّ من المعلومات التي تصلهم، وبالتالي تعطّل ترتيب أوراقهم وفقاً لما يستجدّ من أمور، لذلك كانت تقوم بقطع جميع وسائل الاتصال وعلى رأسها الإنترنت، فقامت العديد من الشّركات بتأمين طرق لتخطّي هذه المشكلة، ومجاناً في أغلب الأحيان، وكحل ّلهذه المعضلة أعلنت وزارة الخارجيّة الأمريكيّة عن طرح عطاء لتصنيع جهاز لا يمكن قطع إرساله، أو التّنصت عليه، أو رصد إرساله أو حتى التشويش على بثّه، {وتم إرسال هذا الجهاز بعد تصنيعه إلى سوريا، وذكر أنّه وصل إلى إيران أيضاً}، وهذان الأمران – استحداث المواقع والتّقنيات لتخطّي انقطاع الإنترنت – جعل من البعض أن يعتبر ذلك دليلاً إضافيًّا على وجود مؤامرة تتعرض لها المنطقة.

---

[1] في مصر أعلن عن قطع الاتصالات مساء يوم الخميس ٢٠١١/١/٢٩م وفي ليبيا أعلن عن قطع الإنترنت في اليوم التالي لاندلاع الثورة ٢٠١١/٢/١٨م.

ولهذا الدّور الذي لعبته مواقع التّواصل الاجتماعيّة، جعل البعض يطلق على هذه الثّورات ثورة الفيس بك، بسبب أنّ موقع الفيس بوك ، كان الأكثر شهرة من بين هذه المواقع.

ظاهرة أخرى رافقت ظهور مواقع التّواصل الاجتماعيّ ، وهي العوالم الافتراضيّة ، وهي تطوير الأبعاد الثلاثيّة، وهو الجيل الثّالث للتكنولوجيا([1])، وذلك جعل العديد من الشّباب يحاول افتراض حياة كريمة وعادلة خالية من القمع والخوف، وذلك كان تمهيداً لنقل التّجربة على أرض الواقع، والذي تجسّد في تفاعلات عبر هذه العوالم والمدونات والمواقع، ثمّ الدّعوة إلى تظاهرات تطوّرت لاحقاً إلى ثورات، وانتفاضات أطاحت برموز الاستبداد والدّكتاتورية، فيمكن أن نخلص هنا إلى أنّ الإعلام بكلّ وسائله المرئية والمسموعة والمكتوبة وعبر الهواتف النّقالة، والتّفاعلي من خلال شبكات الإنترنت، ومواقع التّواصل الاجتماعيّ عبرها، وبكلّ أشكال هذا الإعلام الرسميّ والمستقلّ والفرديّ وبكلّ الفضائيات المحليّة والإقليميّة والدّوليّة، كانت له كلمة الحسم، فهو البداية وعنده تنتظر نقطة النهاية،

وخلاصة القول هنا أنّ السّلطة الرّابعة بكلّ فروعها المرئيّة والمسموعة والمكتوبة، لها من القوّة في التّأثير على الرّأي العام أكثر من غيرها من السّلطات الأخرى.

---

[1] راجع نبذة عن مواقع التواصل الاجتماعي في أخر الكتاب.

الباب السادس

جني الثّمار

قبل الخوض في صلب هذا الباب، هناك حقيقتان لا بدّ من وضعهما نصب أعيننا، لأنّ لهما الأثر الكبير، وسيؤثّرون بشكل ملموس على صعيد إدارة الحكم في البلدان التي طالتها الثّورات.

الأولى: إنّ الفترات الانتقاليّة قادها رجال النّظام السّابق، في جميع البلدان التي ثارت فيها الجماهير ضدّ أنظمتها، ففي تونس نقل ابن علي صلاحيّاته إلى الوزير الأول([1]) محمد الغنوشي في ٢٠١١/١/١٤م، وذلك وفق نصّ الدّستور التّونسيّ الذي ينصّ على تولّي الوزير الأول صلاحيات الرّئيس في حال شغوره بشكل مؤقت، ثمّ قام الغنّوشي بنقل هذه الصلاحيات إلى فؤاد المبزغ، الذي كان يشغل منصب رئيس مجلس النّواب التّونسيّ، وهو واحد من أبرز قيادات حزب التّجمع الدّستوريّ الدّيمقراطيّ الحاكم، مع أنّ ذلك غير ملزم بنصّ الدّستور، الذي يجيز تسلّم رئاسة البلاد إلى رئيس مجلس النواب، أو إلى رئيس المحكمة العليا ، والذي لن يكون من قادة الحزب على الأقل، إن لم يكن مستقلا، وقام الرّئيس المصريّ حسني مبارك بتسليم مقاليد الحكم إلى المجلس العسكري، الذي ترأسه المشير

---

[1] أعلن رئيس الوزراء التونسي المكلف محمد الغنوشي اليوم الاثنين تشكيلة الحكومة التونسية الانتقالية الجديدة مع بقاء ستة وزراء من حكومة الرئيس السابق زين العابدين بن علي وانضمام ٣ وزراء من قيادات المعارضة للحكومة الجديدة . (وكالة النهار الاخبارية).

محمد حسين طنطاوي، الذي شغل منصب وزير الحربيّة أبّان مبارك، وذلك في مخالفة واضحة للدّستور المصريّ الذي ينصّ على تسلم السّلطة لنائب رئيس الجمهوريّة، أو أن تسلم لرئيس مجلس الشعب، أو لرئيس المحكمة الدستوريّة، هذا على مستوى رأس الهرم، أما على مستوى رؤساء الحكومات فقد بقيت بيد رؤساء الحكومات السّابقين الذين كانوا على رأس الحكومة عقب تخلي رئيس البلاد عن الحكم، فمحمد الغنّوشي أعلن عن تشكيل حكومة وحدة وطنيّة استمرت في الحكم حتى ٢٠١١/١/٢٧م، والذي استقال تحت الضّغط الجماهيري المتظاهر والمطالب باستقالته، وكلّف الباجي قائد السّيسي بتولي الحكومة التالية، أما وزير المواصلات المصري في وزارة أحمد نظيف الدكتور شفيق فقد كلفه مبارك بتشكيل الحكومة عقب إقالة نظيف في ٢٠١١/١/٣١م([١]) والذي استقال أيضاً تحت الضغط الجماهيري، فكلف المجلس العسكري الدكتور عصام شريف –مستقل– بتشكيل الحكومة، والتي قدّمت استقالتها في ٢٠١١ /١١/٢٢م بسبب الاحتجاج على استخدام القوّة ضدّ المتظاهرين، ليكلّف المجلس العسكريّ رئيس الوزراء السّابق كمال الجنزوري بتشكيل الحكومة التي أدّت اليمين الدستوريّ أمام طنطاوي في ٢٠١١/١٢/٧م، وفي ليبيا آلت الأمور هناك للمجلس الانتقالي بقيادة مصطفى عبد الجليل، وزير العدل إبّان حكم القذّافي، والذي أعلن انشقاقه مع بداية الثّورة في ٢٠١١/٢/٢١م، وسُلّمت قيادة

---

[١] حيث قام شفيق بتشكيل حكومة جديدة شكلاً تألفت من ٣٢ وزيراً، إذ ضمت ١٨ وزيراً سابقاً على رأسهم وزير الداخلية حبيب العدلي والخارجية أحمد نظيف.

المجلس العسكري في بنغازي إلى اللّواء عبد الفتاح يونس وزير الداخلية([1]) إبان حكم القذّافي حتى اغتياله ٢٠١١/٧/٢٨م على يد مرافقين له من جيشه الذي يرأسه، وأمّا اليمن فقد قام علي عبد الله صالح بنقل صلاحياته إلى نائبه عبد ربه منصور هادي، القياديّ البارز في الحزب الحاكم، والذي تم انتخابه رئيساً توافقياً للبلاد، في أول انتخابات عـقب تنحّي علي صالح، وذلك وفق الصّفقة المعقودة بين الرّئيس صالح وأحزابه من جهة، وأحزاب المعارضة من جهة أخرى، من خلال المبادرة الخليجية.

من خلال هذا الاستعراض السّريع لما آلت إليه الأوضاع في بلدان الثّورات، نرى أنّ مفاصل الحكم بقيت بأيدي رجال النّظام السّابق، وهذا ما دعا العديد من المحللين وعلماء الاجتماع لرفض تسمية ما حدث في هذه الدّول بالثّورة([2])، إذ أنّها فقدت أهمّ أركان الثّورة المتمثلة بإنهاء حكم النّظام، إذ لم يتغيّر في الواقع إلا اشخاص محددين، بينما بقيت المفاهيم والنّظم وحتى غالب الأشخاص في مواقعهم دون أن يطالها أيّ تغيير، ويمكن القول بأنّ التّغيير كان تغييراً سطحيّاً، وقد وصف هؤلاء ما حدث بالانتفاضة

---

[1] يعتبر الرجل الثّاني في ليبيا حيث ذكره القذافي في أول خطاب له باعتباره رفيق دربه، وكان يظن أنّ الثوار في بنغازي قتلوه ليتبين فيما بعد أنّه انضم إلى الثّورات. وأكّد المدّعي العام الليبي أنّ كلاّ من يحيى عبدالسلام الزوي، ومحمد بن عيسى، و أحمد علي منصور الجهانى، وسالم محمد علي العبيدى، وعلي عبدالقادر زوبي بالإضافة إلى شخص اسمه (إبراهيم) لم يتمكن من معرفة بقية اسمه، جميعهم متهمون أمام القضاء بالتّورط في القتل المباشر في هذه القضية .

[2] للتفريق بين مفهوم الثورة والانتفاضة والانقلاب، راجع الموسوعة السياسية/عبد الوهاب الكيال.

على واقع غير مرغوب فيه أدّت إلى تصحيح المسار أو تسعى إلى ذلك، من خلال الضّغط الجماهيريّ المتصاعــد وصولاً إلى الانتفاضة الشّاملة، مما يؤدى إلى مرحلة حكم انتقالي،([1]) لذلك كان بلوغ النّهاية بهذه الثّورات بنظام حكم مستمر أي بقاء النّظام السّابق مع تغيير لأشخاص لكنهم تابعين له صعب المنال .

الثّانية: إنّ التنظيمات الإسلاميّة كانت الأكثر تنظيماً وقدرة على استيعاب المتغيرات في السّاحة العربيّة، والعمل على الاستفادة من ذلك، وبالتّالي حصد الثّمار، ووقفت جماعة الإخوان المسلمين على رأس هذه التنظيمات، ومردّ ذلك إلى:-

١- عداء الأنظمة الشّديد للتنظيمات الإسلامية، حيث دأبت هذه الأنظمة على حظر نشاط هذه التنظيمات، وملاحقة قيادتها وكوادرها، على أن هذه الملاحقات لم تكن على نسق واحد ، بل تذبذبت بين العنف والتشديد بممارسة الإعدام، والإبعاد والسّجن عشرات السّنوات، وبين الهدوء والتّراخي بالسّماح لقيادات بارزة فيها بخوض الانتخابات التّشريعية، إنّما كمستقلين لا كأعضاء في هذه التّنظيمات، وحالة العداء هذه جعلت الجماهير تؤيّد هذه التّنظيمات والتّعاطف معها.

---

[1] للتفريق بين الحكم الثوري والحكم الانتقالي /راجع الموسوعة السياسية/ عبد الوهاب الكيالي/الجزء الثاني/دار الهدى...

٢- الطّابع الدّيني لهذه المنطقة، الأمر الذي يجعل المتدينين يؤيدون هذه التّنظيمات سواء كان عضواً فيها، أو متعاطفا معها أو حتى مخالفاً لها، إلا أنه يرى فيها البديل الأفضل.

٣- الإمكانيات الإعلاميّة المتاحة لهذه التّنظيمات دون غيرها ، مثل الفضائيات الدّينيّة والفضائيات التي تُخصص جزءا من بثّها للشّؤون الدّينيّة، ومنابر الخطباء بالإضافة إلى التّجمعات الدّينيّة ، كصلاة الجمعة، وصلاة الأعياد، وذكرى الإسراء والمعراج، ومولد النّبي محمد صلّى الله عليه وسلّم وغيرها الكثير، والتي تُحسن هذه التّنظيمات استغلالها أحسن استغلال مما يزيد من مؤيدي فكر التّنظيم تمهيداُ لتجنيدهم.

٤- الموارد الماليّة المتجدّدة والدّائمة المتاحة لهذه التّنظيمات، إذ أنّها تعتمد على أموال الزّكاة والصّدقات وأموال الجهاد بالمال، واستحالة تجميد هذه المصادر أو قطعها، وإنّما قد تستطيع الدّول الحدّ من وصول هذه الأموال فقط لا غير، وعمل هذه التّنظيمات على تنمية الأموال من خلال مشاريع اقتصاديّة تزيد من دخلها ، وبالتّالي قدرتها على استغلال ذلك بهدف زيادة المؤيّدين والأنصار.

٥- عمليّة الإعداد المستمر من هذه التّنظيمات، والتي لم تتغيّر أو تتوقّف، رغم استمرارها من فترات زمنيّة طويلة إلّا أنّ مُنَظّري هذه التّنظيمات قادرين على اسناد ذلك للإرادة الإلهيّة، وبذلك تجد العلاج اللّازم لأيّ خطأ أو تقصير، فقد يقول بعضهم إنّ الله لم يشأ أن تسير الأمور على هذا الشّكل، أو أنّ الله لم يأذن بالفرج بعد، أو أنّ الله لم يوفقنا ليمتحن قلوبنا

أنصبر أم نكفر، وغيرها من العبارات، التي تغني عن البحث عن الأسباب الحقيقيّة الكامنة في عدم تحقيق أهداف التّنظيم، وهذا ما تفتقر له التّنظيمات الأخرى التي تتعامل مع قدرات بشريّة بحته، ففي أيّ تقصير مرده إلى الخلل في أداء الأمر الذي يجعل التّنظيم يفتقد الكثير من الأنصار، إذا طال أمر الصّراع ولم يحقق انجازات ملموسة على أرض الواقع، بيد أنّ التّنظيمات الإسلامية قادرة على اقناع كوادرها والمنتسبين لها أنّ انتماءهم إلى الجماعة فيه إرضاء لله سبحانه وتعالى، وإن لم يحقق العضو غير هذا الإنجاز -إرضاء لله سبحانه وتعالى-، لكان هذا كافٍ وفيه الخير الجزيل، فهدف المسلم هو نوال رضوان الله لبلوغ جنّته، وهذا متحقق سواء نجح العضو في الوصول مع الجماعة إلى تحقيق أهدافها، أم لم يحقق ذلك، لأنّ ذلك مرتهن بمشيئة الله سبحانه وتعالى، -هذا القول صحيح من حيث الإيمان، ولكن يجب البحث في الأعمال التي تقوم الجماعة بها من حيث صحّتها أو مخالفتها، أو أنّ هناك تقصير ما.

٦- قدرة هذه التّنظيمات على ايجاد قاعدة جماهيريّة واسعة في أوساط الطّبقات الفقيرة، وذات التّعليم المنخفض أو المعدوم، والتي تشكّل الغالبيّة السّاحقة في وطننا العربيّ، بالإضافة إلى النّخبة المثقّفة، والاقتصاديّة في المجتمع، بينما كانت التّنظيمات الأخرى تبحث عن النّخب والمثقفين والأغنياء، الأمر الذي أدّى إلى انخفاض أعداد العناصر لصالح التّنظيمات الغير إسلامية.

٧- إنّ التّيار الوسطيّ من التّنظيمات الإسلامية، لم يصل إلى سدّة الحكم منذ انهيار الخلافة الإسلاميّة في العقد الثّاني من القرن العشرين، وبقوا متمترسين دوماً خلف مقاعد المعارضة، الأمر الذي أتاح لهم رفع شعارات رنانة تدغدغ مشاعر الجماهير، فالجلوس في مقاعد المعارضة يحرّر من تبعات القرارات، وبالتّالي يُمكّن صاحبه من طرح ما يشاء من شعارات، وأفكار يرغب بتطبيقها، أو يدّعي أنّه يريد تطبيقها، فهو غير مطالب بتنفيذ ذلك على أرض الواقع، ومن المعروف أنّ الامتحان لأيّ تنظيم أو حزب سياسيّ يكمن في تطبيق برامجه وأهدافه وشعاراته على الأرض، وليس فيما يطرح من هذه الشّعارات في كتبه وأدبياته وإعلامه، فالتّطبيق يحتاج الوصول إلى الحكم، وذلك لم يحدث، فتبقى الشّعارات سيّدة الموقف.

كلّ ذلك جعل من التّنظيمات والأحزاب الإسلاميّة الأكثر أهلية لقطف ثمار الثّورات، وهذا ما دعا البعض يطلق على ما يجري بالربيع الإسلامي بدل من الربيع العربي، اذ رأوا أنّ المستفيد الأكثر هم الإسلاميون.

في ظلّ هاتين الحقيقتين، يمكن لنا تتبّع مسار الأحداث، وإلى أيّ اتجاه تشير هذه البوصلة للثّورات، حيث خرجت بشعارات اجتماعيّة واقتصاديّة ومطلبيّة، في ظلّ غيابٍ ملحوظٍ للشّعارات الدّينيّة أو القوميّة.

فعلى سبيل المثال حدّد شباب ائتلاف الثّورة في مصر اهداف الثّورات في بيان وُزّع يوم ٢٠١١/١/١٣م بما يلي([1]).

١- انهاء مبارك من الحياة السّياسيّة وتقديمة واعوانه إلى المحاكمة.

٢- رفض توريث الحكم لابنه جمال، وتعديل الدّستور خاصّة فترة الرّئاسة.

٣- المطالبة بالحريّات العامّة، وإلغاء حالة الطّوارئ المفروضة على البلاد منذ ١٩٨١/٦/١٠م، على إثر اغتيال رئيس الجمهوريّة المصريّ أنور السّادات، ولم تُرفع حتى قيام الثّورة.

٤- حلّ البرلمان بمجلسيه الشّعب والدّستوريّ ، بسبب ما شابه من تزوير.

٥- تحسين الظّروف الاقتصاديّة في البلد ، وتحقيق العدالة الاجتماعيّة ومحاكمة الفاسدين ، واسترداد الأموال المنهوبة من خزينة الدّولة.

٦- تشكيل حكومة انقاذٍ وطنيٍّ للانتقال بالبلاد إلى برّ الأمان.

٧- الإفراج عن السّجناء السّياسيين ، وحلّ جهاز أمن الدّولة([2]).

إنّ النّاظر الى الأهداف يرى جلياً خلوّها من المطالبة، بإلغاء اتفاقيّة السّلام مع اسرائيل مثلاً، أو اغلاق السّفارة الإسرائيليّة في مصر، أو المطالبة بتطبيق الشّريعة الإسلاميّة، بل إنّ جماعة الإخوان المسلمين – التنظيم الإسلامي الأكبر قوة وتأثيراً وحجماً في مصر- أعلنت في مناسبات

[1] تلى البيان وائل غنيم على قناة العربية.

[2] حيث تم حلّ الجهاز وإيقاف مديره عن العمل بقرار من المجلس العسكري يوم الثلاثاء ٢٠١١/١/١٢م.

عدّة وعلى لسان اكثر من مسؤول فيها، أنّها لا تسعى إلى إقامة إمارة إسلامية في مصر([1])، وأنّ الجماعة مع فكرة الدّولة المدنيّة، وحقّ المواطنة، واشراك الجميع في ادارة شؤون البلاد، والحفاظ على حقوق المواطن، وعدم التّمييز بين مواطن وآخر بسبب جنسه او لونه أو دينه، وأنّ الجماعة تتمسّك بهذه المبادئ، وهي تسعى لتطبيقها ،هذا بالإضافة إلى تأكيد الجماعة على احترام الاتفاقات الدّوليّة التي وقّعتها مصر، وإنّها مستعدّة للوفاء بالتزامات مصر فيها، {وهو ما يعني صراحة التزام الجماعة بالحفاظ على معاهدة السّلام التي طالما اعتبرتها خيانة، وطالبت بإلغائها باعتبارها خيانة، وطالبت بإلغائها باعتبارها اتفاقية استسلام}.

وهذا الالتزام تكرّر على لسان مسؤول حزب النّور السّلفي في مصر، وذلك خلال لقاءٍ عبر الهاتف اجرته معه قناةٌ اسرائيليّة أثناء زيارته إلى غزّة بثّه تلفاز القناة العاشرة الإسرائيليّة، حيث قال في ردّ على سؤال، ما هو موقعكم من اتفاقية السّلام مع إسرائيل؟ فكان ردّه ((إنّ الحزب ملتزم بالمحافظة على اتفاقيّة السّلام مع إسرائيل))، والجدير بالذّكر أنّ هذا المسؤول أكّد عدم علمه أنّه كان يتحدّث لوسيلة إعلاميّة إسرائيليّة، إلا أنّه لا ينفي أيّ مما حوته هذه المقابلة.

---

[1] حيث قال محمد مرسي /مرشح الإخوان للرّئاسة عقب ظهور النّتائج الأولية لجولة الإعادة، في الانتخابات الرّئاسية خلال مؤتمر صحفي (سنعمل على اقامة الدّولة أخوية، وطنية، مدنية، ديمقراطية، وحديثة)، الفضائية المصرية ٢٠١٢/٦/١٨م.

وفي سوريا أعلن أنّ الهدف من الثّورة هو اسقاط نظام بشار الأسد وحزبه البعثيّ، ومحاربة الفساد الذي تفشى في البلاد، والإصلاح السّياسي ّوالاقتصاديّ، وانتزاع الحرّيّات العامة التي صادرها النّظام، ولم ير شعارا واحدا يطالب بتحرير الجولان المحتلّ من قبل الإسرائيليين منذ عام ١٩٦٧م، والأغرب من ذلك، أنّ التّقصير والتقاعــس من قبل النّظام في هذا الجانب الوطنيّ الحيويّ لم يستخدم في الحرب الإعلامية التي شنتها المعارضة على الأسد ونظامه، ومع أنّ التّقصير هنا كان في أهمّ الرّكائز والمهامّ الواقعة على الدّولة، وأحد أهمّ الشّعارات التي رفعها المنقلبون على النّظام الحاكم، في حينه بل أنّ أهمّ شعار رفعه حزب البعث هو تحرير فلسطين المحتلة، واعتبارها جزءا من أرض سوريا وإقليمها الجنوبي، ولكن رغم كلّ ذلك لم يعط هذا الجانب أيّ اهتمام أو تركيز في هذه الحرب، وقد تساوى في ذلك الجماهير والأحزاب.

فقد أعلنت جماعة الإخوان المسلمين في مؤتمر صحفي لها، جمع عددا من قادة الجماعة على رأسهم مرشد الإخوان في سوريا([1])، إنّ الجماعة مع الدّولة المدنيّة، يكون المواطن فيها الأساس، وهي تتعامل على أساس أنها ضدّ منع أيّ أحد من المشاركة في إدارة شؤون البلاد، ووصوله إلى أعلى المراتب بسبب دينه أو طائفته او جنسه، وإنّها تحترم الاتفاقيات الدّولية الموقعة، وتؤمن بمبدأ التّداول السّلمي للسّلطة عبر صناديق الاقتراع،

---

[1] محمد رياض الشقفة – مراقب في ٣أغسطس ٢٠١٠م حتى كتابة هذا الكتاب /ويكيبيديا الموسوعة الحرة على النت.

وإنها ستحترم الحرّيّات العامة، ولم نسمع عن التزام الجماعة بالعمل على تحرير الجولان المحتل، أو عن حقّ الشّعب السّوري في المقاومة، ولم تتعهد الجماعة بإقامة دولة إسلاميّة، أو سعيها لتطبيق الشّريعة الإسلامية، ولم تتعهد ايضاً بالعمل على الانعتاق من التّبعية للغرب، أو أيّ شعار قوميّ عربيّ، ولا على سبيل العمل عليه مستقبلاً.

من خلال هذه النّماذج نرى أنّ الأهداف والشّعارات التي رافقتها، كانت ذات أبعاد اقتصاديّة لحزبٍ دون آخر، أو لشخص دون سواه، فيما يمكن أن يقدّمه الحزب أو الشّخص من وعود، او رؤى أو مشاريع قادرة على النّهوض بالواقع، ومدى اقناع الجماهير بنزاهته، وقادرة على محاربة الفساد، سواء في صفوف التّنظيم أو على المستوى العام، وهذا ما جعل الجماهير تنظر إلى التّنظيمات ذات الأيدولوجيات الإسلاميّة كمؤهلة لقيادة المرحلة. فمن المعروف أنّ الرادع الدّيني، أهمّ رادع يمتلكه الإنسان، إذ إنّ طبيعة الرّقابة في هذه الحالة رقابة ذاتيّه، وهي الأكثر نجاعة في منع النّفس من الوقوع في الخطأ والزّلل، أو ممارستها للتّسلط ، وميلها إلى الفساد المّاديّ والأخلاقيّ، ولذلك رأت الجماهير أنْ تضع ثقتها بالتّيارات الدّينيّة، سواء المؤطّرة أو غير المؤطّرة، فلا تزال ذاكره الجماهير مثخنة بحالات الفساد الذي استشرى في أركان وطننا العربيّ، والّتي ارتبط جلّها بأسماء أعضاءٍ قياديةٍ في الأحزاب الحاكمة، أو من الموالين لهم، أو من الوزراء في حكوماتهم، فعلى سبيل المثال، احتكر احمد عــز الأمين العالم للحزب الوطنيّ الدّيمقراطيّ الحاكم، أكثر من ٦٠% من إنتاج الحديد والصّلب في مصر، الأمر

الذي جعله المتحكّم بكلّ ما يتعلق في هذا المجال، من سعر وحجم للإنتاج وغيرها، وقد ثبت أنّ ذلك لم يكن إلا بسبب موقعه الحزبي، وكذلك فقد صدرت أحكام عدّة على وزراء مصريين بتهم الفساد ، وتبديد المال العام، وهذا ما انطبق على تونس حيث صدرت أحكام ضدّ الرّئيس التّونسيّ الفار زين العابدين، وزوجته ، والعديد من المقربين لهما، وكذلك العديد من وزرائه، بتهم الفساد وتبديد المال العام ، ولم تنس الجماهير أنّ التّيارات الإسلاميّة هي من فتح النّار إعلامياً على الأنظمة خلال معركتها من أجل اقناع الجماهير بعدم صلاحية هذه الأنظمة، وضرورة العمل على تغييرها واستبدالها بأنظمة حكم اسلاميّة، تضع مخافة الله أمام أعينها، وهذا ما جعل الجماهير تتصوّر أنّ التّنظيمات الإسلاميّة الأكثر قدرة على اجتثاث هذه الآفّة القاتلة.

وهكذا نرى أنّ التّيارات الإسلاميّة هي الأوفر حظاً في الوصول إلى سدّة الحكم في البلدان التي طالتها عواصف التّغيير، بل أمتد ذلك إلى دولٍ لم تطلها العواصف، لكنّها تأثّرت بها مثل المغرب والأردن، وهذا ما بدأ يتكشف من خلال نتائج([1]) الانتخابات التي جرت في تونس ، حيث كان حزب النّهضة صاحب المركز الأوّل في انتخابات المجلس التّأسيسيّ بواقع ٤١%(٩٠مقعداً) من أصل ٢١٧، يليهم المؤتمر من أجل الجمهوريّة بنسبة١٥%(٥مقاعد)، وفي مصر حزب الحرّيّة والعدالة الذّراع السّياسيّ

[1] بحسب ما أعلنته لجان الانتخابات المركزيّة في مؤتمراتها الصّحفية في كلٍ من مصر وتونس.

للإخوان المسلمين في المرتبة الأولى بواقع٤٦% من اجمالي مقاعد مجلس الشّعب والشّورى ، بقرار المحكمة الدّستوريّة الـــ ٥٠٢، يليه حزب النّور السّلفي بواقع٢٣% ليشكلا معاً ٦٩% من اجمالي المقاعد، أي أكثر من ثلثي هذه المقاعد.

هذه النّتائج تظهر مدى ربح التّيار الإسلاميّ من هذه الثّورات، وبالأخص جماعة الإخوان المسلمين، التّنظيم السّياسيّ الأكبر عالمياً، والذي يجب أن يوصف بالتّيار الوسطيّ، وهذا ما كانت الجماعة تدركه، لذلك شكّلت شبكة أمان للمجلس العسكريّ في مصر من خلال عدم مشاركتها في أي تحركات موجّهة ضدّه، أو عدم الدّخول في أيّ ائتلاف مناهض له، محقّقة هدفين متوازيين :

الأول: استعراض لقوّتها في الشّارع، من خلال اظهار أنّها تمتلك أكبر عدد من المؤيدين والمناصرين، والذي سيكون غيابهم ملحوظ كما كانت مشاركتهم ملحوظة.

والثاني: عدم تأخير اجراء الانتخابات، وذلك لإيمان الجماعة الرّاسخ، بأنّ أي ّتأخير لهذه الانتخابات، لن يكون لصالح الجماعة، حيث أنّها تعلم أنّ جميع الأحزاب المتواجدة أضعف من أن تشكّل خطراً حقيقياً على الجماعة، ولكن يكمن الخطر في انشاء أحزابٍ أو تيارات جديدة، قد تطرح رؤى وبرامج قريبة من برامج الجماعة، أو أكثر تأثيراً وقوةً وقدرةً على اقناع الجماهير، فتلقى تأييداُ واسعاً، خصوصاً أنّ الجماعة لم تتميّز فيما طرحته

من برامج بشيء لا يمكن لحزب أو تيار طرحه، مهما كانت الخلفية التي انطلق منها، اسلاميّة أم يساريّة أم علمانيّة، هذا بالإضافة إلى الأخذ بعين الاعتبار، أنّ وصول هذه الجماعات إلى السّلطة بهذا الشّكل المفاجئ، والتي لم تُعِدّ نفسها لهُ بصورة مقبولة على الأقلّ ، سيؤدي إلى إرباك في أدائها، وبالتالي إلى أخطاء قد تدفع ثمنه من أعداد أنصارها ومؤيديها، مما سيعكس ذلك على أعداد الأصوات، وهذا ما ظهر جليّاً من خلال نتائج الانتخابات الرّئاسيّة في مصر، والتي جرت على جولتين.

الجولة الأولى الأربعاء والخميس٢٤-٢٠١٢/٥/٢٥م حيث جاءت النّتائج مفاجئة وصادمة، ومخالفة كلّ التّوقعات ، وكانت النتائج على ما هو مبين في الجدول([١])

إجمالي عدد النّاخبين المقيّدين في الجداول الانتخابيّة	٥٠.٩٩٦.٧٤٦
إجمالي الناخبين الذين حضروا وصوّتوا	٢٣.٦٧٢.٢٣٦
نسبة الحضور	%٤٦.٤٢
إجمالي عدد الأصوات الصّحيحة	٢٣.٢٦٥.٥١٦
إجمالي عدد الأصوات الباطلة	٤٠٦.٧٢٠

[١] المركز العربي للأبحاث ودراسة السّياسات.(Arab Center For Research £ Policy Studies).

نسبة كل من المرشحين

محمد محمد مرسي العياط	**٥.٧٦٤.٩٥٢**	**%٢٤.٧٧**
أحمد محمد شفيق زكي	**٥.٥٠٥.٣٢٧**	**%٢٣.٦٦**
حمدين صباحي	**٤.٨٢٠.٢٧٣**	**%٢٠.٧٢**
عبد المنعم أبو الفتوح	**٤.٠٦٥.٢٣٩**	**%١٧.٤٧**
عمرو موسى	**٢.٥٨٨.٨٥٠**	**%١١.١٣**
باقي المرشحين	**٥٢٠.٨٧٥**	**%٢.٢٥**

أما النّتائج في الجولة الثّانية فكانت كما يلي([١])

إجمالي عدد النّاخبين المقيّدين في الجداول الانتخابيّة	٥٠.٩٥٨.٧٩٤
إجمالي النّاخبين الذين حضروا وصوّتوا	٢٦.٤٢٠.٧٦٣
نسبة الحضور	%٥١.٨٥
إجمالي عدد الأصوات الصّحيحة	٢٥.٥٧٧.٥١١
إجمالي عدد الأصوات الباطلة	٨٤٣.٢٥٢

---

[١] **المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.(Arab Center For Research £ Policy Studies).**

اسم المرشح	الأصوات التي حصل عليها	النسبة المئوية من الأصوات الصّحيحة
أحمد محمد شفيق زكي	١٢.٣٤٧.٣٨٠	٤٨.٢٧%
محمد محمد مرسي عيسى	١٣.٢٣٠.١٣١	٥١.٧٣%

ولقد حصل محمد محمد مرسي عيسى العياط في الجولة الأولى على المرتبة الأولى ٢٤,٧٧%، وفي المرتبة الثّانية مرشح المجلس العسكري كما أُشيِعَ أحمد شفيق ٢٣,٦٦%، وفي المرتبة الثالثة حمد الصباحي ٢٠,٧٢%، والمرتبة الرابعة عبد المنعم أبو الفتوح ١٧,٤٧%، وفي المرتبة الخامسة عمرو موسى ١١,١٣%، وباقي المرشحين على ٢,٢٥% بحسب ما هو مبين في الجدول.

وفي الجولة الثّانية حلّ محمد مرسي في المرتبة الأولى حيث حصل على٥١,٧٣%، كما أكّد عضو في اللّجنة المشرفة على الانتخابات الرّئاسيّة تقدّم مرسي محقّقاً تقدّماً على منافسه العسكريّ السّابق أحمد شفيق بنسبة ٥٢% من أصوات النّاخبين، فيما حلّ مرشّح المجلس العسكريّ، كما أُشيِعَ أحمد شفيق آخر رئيس للوزراء في عهد مبارك في المرتبة الثّانية بحصوله

على٤٨%، أي أنّ فارق الأصوات كان٤% وبالأرقام ٨٨٢٧٥١ صوتاً([1])، ولذلك كانت نتائج الانتخابات في الجولة الثّانية مخيّبة لآمال الإخوان، الذين ظنّوا أنّ بإمكانهم حسم المعركة من الجولة الأولى.

والملاحظ أنّ التّصويت في هذه المرحلة، ظهر بثوب صراع بين رجل الثّورة ورجل النّظام السابق، لذلك لا يمكن اعتبار هذه النّتائج تجسيداً حقيقيّاً لقوّة الإخوان في الشّارع المصريّ، ولا أيضاً تجسيداً لقوّة النّظام السّابق في هذا الشّارع، فكثيراً ما كان التّصويت لصالح مرشح الإخوان ليس من منطلق التّأييد للجماعة وبرنامجها ، وإنما خوفاً من وصول أحمد شفيق للحكم، مما يعني لهم فشلاً ذريعاً للثّورة، والأمر ينطبق أيضاً على من صوّتوا لصالح شفيق، فليس بالضّرورة أن يكونوا مؤيدين له ولبرنامجه، بل

---

[1] وذكر موقع الإخوان أون لاين أن مرشح حزب الحرية والعدالة محمد مرسي فاز بسباق الرّئاسة المصريّة وذلك بعد حصوله على نسبة ٥٢%، بينما حصل منافسه أحمد شفيق على نسبة ٤٨%، وذلك من إجمالي عدد الأصوات الصحيحة البالغة ٢٥.٥٧٥.٩٧٣ صوتا.(SKY NEWSعربية)

أ- أعلنت اللجنة العليا للانتخابات الرّئاسية في مصر الأحد فوز محمد مرسي، مرشّح حزب الحريّة والعدالة المنبثق عن حركة الإخوان المسلمين، في انتخابات الرّئاسة بنسبة ٥١.٧٣ في المائة ، وسط فرحة غامرة بين أنصاره، ليصبح بذلك أوّل رئيس يصل إلى سدّة الحكم في البلاد في انتخابات ديمقراطية.

فقد حصل مرسي على ١٣٢٣٠١٣١ صوتا، بينما حصل منافسه الفريق أحمد شفيق على ١٢٣٤٧٣٨٠ صوتا من أصل ٢٦٢٤٠٧٦٣ ناخباً أدلوا بأصواتهم، وعدد الأصوات الصّحيحة بلغ ٢٥٥٧٧٥١١ صوتا. (العربيةBBC).

قد يكون خوفاً من صعود الإسلاميين إلى الحكم، بسبب تصوّرهم الخائف من ذلك.

ولا بدّ لنا أيضاً أن نلاحظ أنّ الإسلاميين لم يطرحوا تصوّراً واضحاً للمرحلة القادمة، بل اكتفوا بالهروب إلى الأمام من استحقاقات هذه المرحلة فلم نسمع عن أجوبة واضحة وشافية لأسئلة كثيرة تطرح نفسها مثل، ما شكل العلاقة بين الدّولة والغرب؟

وما هي الخطوط الحمراء التي لا يمكن تجاوزها في العلاقات الخارجيّة؟ وما هو مصير القضايا القوميّة؟ وما هو ترتيبها في سلّم الأولويات؟ وما هو حجم التّغيير الذي ستحدثه على النّظام؟ وهل هو شكليّ أو جوهريّ؟ وغيرها من الأسئلة التي لم تجب عليها ولم تضع لها إطار ينظمها.

وأما بالنّسبة للغرب لم يعد يرى أنّ وصول الإسلاميين في البلاد العربيّة إلى مقاعد السّلطة يشكل خطراً على مصالحه، فقد صرح عدد من المسؤولين الغربيين ، وفي أكثر من مناسبة أنّهم لا يرون في وصول الإسلاميين الوسطيين ضير، كما أعلنوا عن استعدادهم للتّعاون معهم، وقد ذكر أحد المحللين أنّ من أسباب ذلك، أنّ الدّول الغربيّة استضافت العديد من قيادات الإخوان المسلمين، بعد اضطرارهم للهروب من بلدانهم على خلفية انتمائهم لصفوف الجماعة، وأنّ لهذه الاستضافة أثر على نفسيّة هؤلاء القادة، وعلى فكرة تقبلهم الآخر، مما أدّى إلى الانتقال بأفكارهم من دائرة

التّطرف إلى دائرة الاعتدال، مؤكداً أنّه ولغرض تحقيق ذلك، تم العمل على إنشاء دورات وندوات وورشات عمل، شارك فيها هؤلاء القادة، ساهمت إلى حدّ كبير في نزع حالة التّخوف التي كانت سائدة بين الطرفين، هذا ظهر جليّاً من خلال موقف الجماعة من هجمات(١١ أيلول-سبتمبر-) والتي سارعت الجماعة إلى إدانتها، واعتبارها لا تنسجم وتعاليم الدّين لإسلامي الحنيف، الذي لا يجيز قتل المدنيين العُزّل، ومهاجمة الجماعة والتّيار السّلفي الدّعوي للتّيار السّلفي الجهاديّ الذي يُمَثلهُ تنظيم القاعدة، وكذلك التّغيّر الواضح في نهج التّيار الإسلاميّ الوسطيّ، الذي وصل ذروته في التّحول من محاربة الأنظمة الحاكمة بشتى الوسائل، إلى السّعي للوصول إلى الحكم عبر صناديق الاقتراع، وطرح أفكار جديدة متمثّلة بمبدأ السّعي لإقامة دولة مدنيّة، وهي عبارة قُصد منها التّخلي عن الفكرة الأساسيّة للتّنظيمات الإسلاميّة وبالأخص الإخوان المسلمين، وهي السّعي لإقامة دولة إسلاميّة، فالدّولة المدنية تعني إقامة دولة علمانيّة لا تقوم على أساس ديني، بالإضافة إلى قبولهم في الحكم، روّجت لذلك الاحتمال بكلّ ما تملكه من إمكانيّات إعلاميّة أثّرت على الجماهير في عملية توجيه ممنهجة من خلال افساح المجال أمام قيادات إسلاميّة، للبروز في الإعلام، بالإضافة إلى إعداد تقارير من المعاناة الّتي تكبّدتها هؤلاء القيادات من سجن وملاحقة وتشرد، وأصناف التّنكيل الذي ذاقته على أيدي الأجهزة الأمنيّة القمعيّة التابعة للأنظمة الدّكتاتوريّة الموجودة، مما اكسبها المزيد من التعاطف والتأييد.

إنّ الغرب عندما ينحو هذا المنحى ، يتركّز في الأذهان أن لدى صنّاع القرار تجربة مفيدة لحكم الإسلاميين، ممثّلة بكلّ من تركيا والمملكة العربيّة السّعودية، إذ أنّ تركيا المحكومة من قبل حزب العدالة والتنميّة، الذراع السّياسي للإخوان المسلمين في تركيا، تُعتبر حليف استراتيجي للغرب، فهي ثاني مساهم في عدد الجنود لحلف الناتو، وثاني مموّل ماديّ له، وهي بالإضافة إلى هذا وذاك تشكل أهمّ قاعدة عسكريّة، لما توفّره من ممرّات بريّة وجويّة للحلف في المنطقة، فهي تمتلك حدوداً بريةً مع سوريا والعراق وإيران، وحلقة الوصل بين القارّتين الآسيويّة والأوروبيّة، والمسافة الزّمنيّة للممرات الجويّة التي تعتبر مثالية للطّائرات العسكريّة التي تستهدف المنطقة، إذا ما كان هناك داعٍ لذلك، فمع أنّ المُمسك بزمام الأمور تيّار إسلاميّ، إلا أنّ علاقات الغرب مع تركيا مميّزة جداً، والّتي تعتبر مساهمة وشريكة في جميع مخطّطات الناتو، والعرب بشكل عام التي ترتبط معهم بالمنطقة.

كذلك كانت تربط تركيا بإسرائيل علاقات مميّزة، حيث تعتبر شريكاً اقتصاديّاً واستراتيجيّاً لإسرائيل، وكانت أكبر مشترٍ للصّناعات العسكريّة الإسرائيليّة، رغم أنّ العلاقات ساءت، عقب اعتداء البحريّة الإسرائيليّة على اسطول الحريّة (سفينة مرمرة التركية في ١٣/٥/٢٠١٠م)، ورفض إسرائيل الاعتذار عن المعاملة القاسيّة والعنف غير المبرر الذي استخدمته -كما يقولون-، مما أدّى إلى استشهاد تسعة أتراك كانوا على متن هذه السّفينة، التي كانت ضمن أسطول الحرّيّة، الذي جاء إلى حدود

قطاع غزة، بغية كسر الحصار الإسرائيليّ المفروض عليها، بالرّغم من ذلك كله، بقيت حليفةً لها وبقيت متمسكة بالاتفاقيات مع إسرائيل.

أمّا السّعوديّة، فقد كانت البوّابة التي عبرت من خلالها الولايات المتّحدة إلى المنطقة وبالأخص الخليج، والّتي وافقت على استقبال الأساطيل والقواعد الأمريكيّة على أراضيها، والّتي قدّمته رافعة شعار تحرير الكويت، إبّان الغزو العراقيّ لها عام ١٩٩٠م، ونُظِرَ إلى هذه الموافقة بأنّها جاءت من أهمّ دولةٍ إسلاميةٍ سنية، لها مكانة دينيّة مميزة لدى السّنة، ومعروف أنّ من يسيطر على هذه البلد، هم السّلفيّة بفرعيها الدّعوي والجهادي، امتداداً للواهَابيين الذين تحالفوا مع آل سعود، إلا أنّ التّيار الدّعوي ، ساد وطغى على حساب التّيار الجهادي الذي أخذ بالتّلاشي، وبالأخص بعد المواجهة بين التّيارين على خلفية الموافقة على التّواجد الغربيّ في المنطقة بشكل عام ، وعلى أراضِ المملكة بشكل خاص، على أنّ ذلك لم يؤثر على سيطرة التّيار الدّعوي هناك ، والذي أصبح يوصف هو الآخر بالوسطيّ، فالمملكة تعتبر حليف لأمريكا خصوصاً، بل هي الحليف الأهمّ، وهي أكبر مصدر للنّفط للغرب بشكل عام، رغم أنّها محكومة باسم الإسلام، وفيها أهمّ مدينتين إسلاميتين للسّنة هما: مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة، فعندما ينظر صنّاع القرار الغربيين إلى ما قَدّمتهُ السّعودية من مواقف وخدمات، مع قلّة بل انعدام المعارضة الحقيقيّة المؤثّرة فيها، عدا عن تأثيرها في قرار سائر الدّول الإسلاميّة والعربيّة، فعندما يُنظر إلى ذلك يُدرك تمام الإدراك أهميّة وجود إسلاميين معتدلين، –من منظورهم الخاص– في سدّة الحكم، وذلك بهدف

تسهيل مهمّة تحقيق أهداف الغرب في المنطقة بغطاء ديني يقلّل من المعارضة، ففتوى شرعيّة واحدة قادرة على التّأثير على ملايين المسلمين، وإسكات معارضتهم على أقلّ التّقدير، تحت شعارات مثل وجوب طاعة الأمير، وحرمة الخروج عليه، وإنّ ذلك الموقف موقف الشّرع الذي لا يجيز الخروج عنه، فسلطة ما يسمّى برجال الدين في المجتمعات مستمدّة من التفويض الإلهيّ لهم، وبالتالي يرون أنفسهم خلفاء الله في الأرض، ويروّجون لحكوماتهم كحكومات ربانية، الأمر الذي يعزّز من قوّتهم، ويضع معارضيهم في جهة من يحارب الله ورسوله، ويتآمر على الإسلام والمسلمين، وأنّه خان عهده مع الله سبحانه وتعالى، وبالتّالي يسهل الانقضاض عليه، وتصفيته سياسيّاً واجتماعيّاً وجسديّاً، إذا اقتضت الضّرورة، مستعينين بجوقةٍ من علماء الدّين، الذين تنحصر مهمّتهم بإضفاء الشّرعيّة على قرارات الحكام وتكفير من يعارضهم، واصدار فتاوى القتل والتّصفية بحقهم.

على هذه الأرضيّة أصبح الغرب يعتقد أنّ ما كان مدعاة للقلق والخوف من وصول الإسلاميين إلى سدّة الحكم في غير مكانه، ولا يخضع لأسس علميّة ولا تجريبيّة، وبالتالي يمكن تحويل هذا القلق والخوف إلى أداة يمكن استخدامها لتحقيق أهدافه في المنطقة، فالوجوه التي تحكم المنطقة ما عادت قادرة على متابعة مهماتها، بدليل ثورة شعوبها عليها، فوجب تغيير اللّاعبين بآخرين أكثر قبولاً، وأقل معارضة لدى الجماهير، وبما أنّ الجماهير وضعت ثقتها بهذه الأحزاب، فإنّ الغرب مستعدّ لدعم هذا التوجه إذا كان

يخدم مصالحه، فلا يوجد عدو دائم، كما لم يكن هناك صديق دائم، في إطار هذه الرّؤيا الجديدة للتعامل مع الإسلاميين الذين يصنفهم الغرب بالمعتدلين، وهم يسمّون أنفسهم بالوسطيين، قامت وزيرة الخارجيّة الأمريكيّة هلاري كلنتون بعقد سلسة من اللّقاءات مع جماعة الإخوان المسلمين، وذلك استكمالاً لمشروع كانت الوزيرة كوندوليزا رايس التي عملت إبان تولي جورج بوش الابن على فتح قنوات مع الجماعات الإسلامية المعتدلة من وجهة نظر أمريكا وحلفائها، وكان الهدف آنذاك التّوصل إلى صفقة تمكّن هذه الأحزاب من الوصول إلى الحكم بالتّعاون مع الأنظمة الحاكمة ، مقابل تأكيد أمريكا وحلفائها ، بأنّه لن يمس العلاقة، ولا المصالح الغربيّة في المنطقة، ولكن بما أنّ الأمور خرجت عن مسارها، وأصبح من المستحيل التّعايش بين هذه الأحزاب والأنظمة، لذلك استأنفت هلاري كلنتون المهمّة مع تعديل في الخطط فعقدت عدة لقاءات مع قيادات من جماعة الإخوان المسلمين في مصر، وكان التّعليق على هذه اللقاءات إنّ الجماعة لا تمانع في عقد هذه اللّقاءات، بل إنّها ترى فيها نافذة يمكن من خلالها اطّلاع الغرب على ما يحمله الإسلام والمسلمون من أفكار، يمكن البناء عليها من اجل إقامة علاقة وطيدة بين المسلمين وغير المسلمين، بالإضافة إلى إظهار نبل رسالة الإسلام الكونيّة والإنسانيّة الداعية إلى التعايش السّلمي بين المسلمين وأهل الكتاب، بل وغير الكتابيين على أرضية أنّ الإنسان –أي إنسان – له مكانة وكرامة، لا يمكن لأيّ أحد المسّ بها دون وجه حق، إن ّالغرب يطمع في أن يستفيد من الرّبيع العربيّ بغضّ النّظر عمن سيصل إلى

الحكم، فهو لا يهمه من سيحكم، ولا شكل الحكم الذي سيطبق الا بمقدار ما قد يؤثر على مصالحه الاقتصاديّة والسياسيّة والدّينيّة، فقد دعم سابقاً أنظمة ملكية كما في المغرب وليبيا وإيران ومصر، ثم أنظمة جمهورية في نفس الدّول مثل مصر أو غيرها مثل تونس والجزائر والسّودان والإمارات، كما في دول الخليج العربيّ، وهو لن يتوانى بدعم أيّ نظام جديد إذا اقتضت مصالحه ذلك.

وهنا أودُّ أن ألفت النظر لقضية هامة جداَ وهي بالطّبع لا أحد يمكنه القول إنّ التّيارات الإسلاميّة تعمل لصالح الدّول الغربيّة، أو أن يتّهمها بالعمالة له، كذلك لا يمكن القول بأنّ هذه التّنظيمات دمية يحرّكها الغرب كيفما شاء وقتما شاء، أو أنّها تنفّذ أجندة الغرب وأهدافه وحماية مصالحه، فهل هو قدر محتوم لا يمكن الإفلات منه؟ إذا ما توفّرت اليقظة والانتباه اللازمان لكشف مثل هذه الألاعيب، وهو أمرٌ لا ينقص هذه التّيارات!! {{فمن يفعل ذلك فهو يخدم الغرب بحسن نيّة أو بسوء نية}}.

إنّ ما استعرضناه فيما سبق من سطور، أسباب تغيّر نظرة صُنّاع القرار الغربيين للإسلاميين، والذي حتماً لم يكن ذا اسباب إنسانيّة أو أخلاقيّة، بل بما تمليه مصالحهم عليهم، وعدم انزعاجهم من وصولهم إلى الحكم. هذه نظرة الغرب.

كذلك هي تبيان لما يخطّط له الغرب، وما يحيكه من مؤامرات تستهدف وطننا العربيّ، ويهدف إلى استغلال أيّ ظرف أو تغيير في المنطقة

للوصول إلى أهدافه وغاياته وتطلّعاته، مما يتطلّب ذلك من يقظة وحذر، وعدم الانخداع بكلامهم المعسول وشعاراتهم البرّاقة، ودموع التّماسيح التي يذرفونها.

إنّ هذا البحث هو بحث واقع، وتبيان للحقائق، وبعيد كلّ البعد عن الإساءة لجماعة معيّنة أو حزب، ولم يقصد منه غير تبيان ما تخطّط له أمريكا وحلفاؤها في هذه المنطقة، والأهداف الحقيقية من أيّ عمل تقوم به أمريكا وحلفاؤها، لذلك هذا البحث وبهذا الشّكل مما اقتضته الحاجة لتبيان ما يدور في المنطقة ، وما يخطّط لها، وأنّ ما يدور فيها هو تجسيد لتلك الحقائق.

لذلك فعلى الجماعات والأحزاب الإسلاميّة مراعاة هذه الأمور، وأخذ جانب الحيطة والحذر في أي تعامل مع الغرب الحاقد.

الباب السابع

الثّمن

يقول أحد المفكرين ((إنّ الشّعوب الّتي تخشى دفع الثّمن ، وتهاب الفوضى في سبيل تحقيق الحريّة لا تستحقها)).

إنّ الثّمن الذي يدفعه الإنسان، مقابل حريته، والذي يصل حدّ فقدان الحياة تارة، وحريّته تارةً أُخرى، لدليل على أهميّة هذا الأمر في حياة الشّعوب، والذي لا يمكن المساومة عليه أو التفريط فيه، فكلّ ثمن ندفعه لا يساوي الحريّة، فحياة العبد التي يمتلك فيها الأسياد الإنسان كسلعة يبيعونه ويشترونه أنّا شاؤوا ومتى شاؤوا، ويورثّوه كما تورّث الأموال والأملاك، حياة كهذه تسقط منها معاني الإنسانيّة، فأن تكون حرّاً يعني أن تكون إنساناً، أو قُل أن تكون إنساناً يعني أن تكون حرّاً.

فكم من الدّماء سالت على مذابح الحريّة منذ ما قبل ثورة العبيد التي قادها اسبر تكوس عام-٧٣ قبل الميلاد- إلى آخر قطرة دم تسفح اليوم في فلسطين والعراق وسوريا وأفغانستان ...، وفي كل مواطن الظّلم والاستبداد، في سبيل البحث عن الحريّة، هذا الخيط الطويل من الدّماء الممتدّة على امتداد الحضارة الإنسانيّة، لجدير في سبيل الحفاظ على مكتسبات تقديم الرّوح رخيصة، فما الحياة دون حريّة أو كرامة ؟ لذا نرى قوافل الشّهداء تترا كلّما جاء من يصادر الحريّة والكرامة، فالنّاظر إلى

سجون الدكتاتوريات العربيّة ، يراها تعجّ بالسّجناء السّياسيين، وسجناء الرّأي الذين فقدوا حرّيّتهم في سبيل البحث عن حريّة شعوبهم، حتى قضى بعضهم أكثر من ٣٠ عاماً خلف قضبان الموت والقهر، لا لشيء إلا لقوله كلمة حق في وجه السّلطة الجائرة، فهذا الكمّ الذي لا يمكن للعين أن تخطئه في أوطاننا العربيّة، مع ما يشير له من إمعانٍ في قمع رواد الحريّة وطلاب الكرامة من أبناء الأمة، إلا إنّه يشير أيضاً إلى تصميم هذه الشّعوب إلى السّعي الدّؤوب والدّائم للخلاص، والتّحرّر من قبضة الظلم والطّغيان ، وعدم القبول والتّسليم بحياة الخنوع حياة العبيد.

بيد أنّ السّؤال هنا هل هي الحريّة بكلّ ثمن؟ ومقابل كلّ شيء؟ إنّ الحريّة التي تتطلب منّا تقديم ثمن من أعمارنا وأجسادنا وأرواحنا، لهي أرخص بكثير من حياة العبوديّة، لذلك قدّم الإنسان آلاف آلاف الشّهداء، وأضعاف أضعافهم من المعاقين والمعتقلين والمشرّدين، فما يدفعه الإنسان مقابل الحرية ليست هي المسألة ، لكنّ المسألة هي الحريّة.

أما إذا كان الثّمن المطلوب هو الحريّة نفسها، فهذا ثمن لا يمكن دفعه، والتّاريخ خير شاهد على نتائج هذا الثّمن الذي قَبِلَ البعض دفعه، فكثير ما وقعت الشّعوب في هذا الفخّ القاتل، والعرب لا زالوا يعانون الأمرّين من التّبعية والعبوديّة للغرب، وفلسطين لا زالت تدفع أنهاراً من الدّماء في سبيل الخلاص من الاحتلال وتحقيق حرّيّتها، والّتي سلبت بسبب تصديق العرب للأكاذيب التي تفوهت بها الدّول الاستعمارية، ولأنّهم قبلوا أن يدفعوا

حرّيّتهم مقابل تحرّرهم من عبوديّة حكّامهم، وحديثاً سوريا التي لا تزال ترزح منذ أكثر من ٧٠ عاماً تحت الدكتاتوريات الذين استولوا على السّلطة، وآخرهم حزب البعث الذي مارس كل ّأشكال الدكتاتوريّة والاستبداد ضدّ شعبه، ونحن نعلم أنّ هذه الحكومات وصلت إلى السّلطة بشعار رفع الظّلم والاستبداد، الذي كان يمارس عليهم سابقاً، ولكن نعلم أيضاً أنّه لا يمكن لدكتاتور أن يسعى إلى تحرير النّاس من عبوديتهم لغيره، إلا بهدف اخضاعهم لعبوديتّه هو، إذا كان المقابل هو عبودية أخرى أكثر ظلماً واستبداداً من سابقتها، لذلك لا يوجد عبوديّة أفضل من أخرى، ولا تبعيّة مرفوضة وأخرى مقبولة، مهما غُلِّفَت تلك العبوديّة والتّبعية بشعارات رنّانة برّاقة، فالأسير الفلسطيني يرزح بالقبور عشرات السّنين، وقد قضى الكثير منهم أكثر من ثلاثة عقود في سبيل البحث عن حرّيّة شعبه وأمّته، فهل يمكن لأحد أن يتصور أن يكون ثمن حرّيّته في يوم من الأيام العبودية المحتلة؟ نقول ذلك لأنّنا نعلم أنّه كثير ما يسعى المحتلّ الصّهيونيّ إلى اخضاع هذا الأسير لعبوديّته، وذلك من خلال عرضه عليه أن يفرج عنه ويُخرجهُ من السجن إلى عالم الحريّة مقابل الارتباط مع هذا العدو والعمل لصالحه، فهذا العرض يشتمل على حريّة الفرد الشّخصية، والتي لا تقدر بثمن، إلا أنّ ذلك نصف الحقيقة الحلوة، أمّا بقية الحقيقة المرة مرار العلقم بل أشد مرارةً منه، إنّ الأمر هو انتقال من فقدان الحريّة داخل السجن إلى تابعية وعبوديّة للمحتل خارج السّجن، وذلك بجعله يعمل على ترسيخ الانصياع للمحتلّ والخنوع التّام له أي {{ عميل }}، ليتحوّل هذا الشّخص من

مطالب بالحريّة إلى عبد ممارس للعبودية حاثّاً عليها، فيصبح سلاحاً بيد عدوّه يُحارب فيه كلّ من يحاول استعادة حريّة وكرامة شعبه وأمته.

فإذا كان هذا حال أهل فلسطين مع محتلها، فالحال أشد قتامة في وطننا العربيّ، فكثير ما تلجأ الأجهزة القمعيّة بعد الفراغ من أسلوب العصا، إلى اسلوب الجزرة –الترهيب والترغيب– الإفراج عن سجنائها فيكون العرض على الناشطين السّاعين إلى انتزاع حقوقهم وحريّتهم وحريّة شعبهم، التّخلي عن هذا النّهج مقابل الكفّ عن ملاحقتهم واخراجهم من السّجن، حتى يصل الأمر إلى تقديم حزمة من الفوائد بهدف تحويل هذا المناضل المطالب للحريّة إلى ممارس للقمع والظلم والاستبداد، خوفاً و رغبة.

هذا بالنّسبة للأفراد ، أما الأشدّ خطورة في هذا المضمار، والذي يؤدّي إلى نتائج كارثية على الشّعب بأكمله، بل الأمة بأكملها، هو استدعاء التّدخل الخارجيّ في سبيل التّخلّص من بطش وقمع أنظمة الظّلم والطّغيان، فكما ذكرنا سابقاً لا يوجد دولة أو جهة تسعى إلى تحرير الشّعوب بالمجان، ولا مكان للأخلاق والمبادئ في العلاقات الدوليّة، فدائماً ما يتحوّل التّدخل الخارجيّ من أمل في التّخلّص أو الخلاص، إلى كابوس جديد من الظّلم والاستبداد والاستغلال لمقدرات الشّعب ومقوّماته، ونشوء دكتاتوريّة جديدة لا أمل في الخلاص منها، فالنّاظر في هذا الثّمن المقدم للخلاص ونيل الحريّة هل هو مقبول؟!!

فالحريّة والكرامة والأخلاق والمبادئ والمعتقدات أمور لا يمكن المساومة عليها، ولا يوجد مقابل لهذه المعاني الإنسانيّة، فهذه المعاني تعني الإنسان الذي ميّزه الله سبحانه وتعالى عن غيره من الكائنات، لتقف الحريّة منها موقف الرأس من الجسد، لأنّه لا يمكن للإنسان أن يحافظ على معتقداته وأخلاقه ومبادئه وحريّته، إلّا إذا امتلك حريّة التّصرف وفق ما تمليه عليه هذه المعاني، فتصوّر عبداً خالف ما يؤمن به سيّده فما هو مصيره؟ وما مصير كرامته ومبادئه وأخلاقه؟

عندما نتحدّث عن العبوديّة، لا نقصد العبوديّة بوصفها طبقيّة اجتماعيّة كانت جزءا من تركيبة المجتمعات فيما مضى، لكن نقصد عقليّة العبد التي تركن إلى الخضوع والخنوع، فكم من العبيد امتلكوا عقليّة الحرّ، فلم يسلّم بالأمر الواقع، وقرّر الانتفاض على العبوديّة ، فاسبر تكوس خاض حرباً لا هوادة فيها ضدّ الرّومان معلناُ ثورة العبيد في وجه الأسياد، فهو نشأ في عائلة مملوكة تربّت على عدم جواز الخروج عن رغبة أسيادها، وأنّ الكفّ لا تقاوم المخرز، وهو يعلم كذلك أنّه يعيش في الطّبقة الأدنى في المجتمع، وبذلك يكون من المستحيل نظرياً نجاح ثورة يقوم بها، لأنّ ذلك سيمسّ مصالح جميع طبقات المجتمع، ولن يحصل من يسانده على أيّ مقابل، بل إنّه سيطّرّ إلى تحرير العبيد الذين يملكهم أولاً، وكان معلوماً لديه أنّ الثّمن الوحيد الذي سيدفعه إذا ما فشل هو روحه، وروح عائلته وروح أبناء طبقته، ورغم كلّ هذه المعوقات، نجح في تفجير ثورته، لأنّه امتلك الشّرط الأساس لذلك، لقد امتلك الإرادة وبالتّالي عقليّة الحرّ، ومثال آخر

على هذه الحقيقة يمكن رؤيتها مع بلال بن رباح الصّحابي الجليل رضي الله عنه، الذي تمرّد على سيّده، وأعلن إسلامه، وهو يعلم ما سيترتب على ذلك من نتائج، فتعرض إلى عذاب مهين، وإلى مساومات على روحه وجسده، لأنّه لا يملك غيرهما، إلا أنّه صمد على موقفه، لأنّه امتلك عقليّه الحرّ، وبالتّالي الإرادة والكرامة، وآمن بقدرته على صناعة التّغيير ونجح في ذلك.

مقابل هذه العقليّة، هناك الأحرار الذين يمتلكون عقليّة العبيد، فلا يمكن لهؤلاء التمرّد على واقعهم الذي يحيونه مهما كان الثّمن، فهو مستعد لأن يفقد كرامته وحريّته، مقابل أن يعيش بأمان وسلام، فكثير ما نسمع عن أنّ شخصاً تعرض للإهانة هو وعائلته ولم يحرك ساكناً، بل سمعنا عن أشخاص تعرضت نساؤهم وأبناؤهم للاغتصاب على يد متنفّذين في الأنظمة، وهو لا يحرّك ساكناً، وإنّما تراه يقتصّ من الضّحيّة ثمن ما جناه المعتدي، وكلّ ذلك لأنّه آثر السّلامة، خوفاً من أن يدفع الثّمن مقابل استرداد كرامته المبعثرة، ومثال آخر على هذه العقليّة يمكن رؤيتها في تبعية الحكام لأسيادهم، فترى حاكماً أو ملكاً لدولة ما، يصول ويجول في مملكته ولا يخشى منهم أحداً، فلم يترك قبحاً إلا فعله، ولا ظلماً إلا ارتكبه، ولا تسلّطاً إلا مارسه ضدّ أبناء شعبه وبني جلدته، ولكن إذا ما جدّ الجدّ واشتدّ الخطب، وخُيّرَ بين مواجهة قوّة أقوى منه، وبين التّبعيّة لها، تراه يخضع ويقبل بالخنوع، وترى الواحد منهم واقفاً وقفة الذليل المهان أمام أصحاب هذه

القوّة. فيفرّط بكرامته وشهامته ومروءته وشرفه([1]) إذا اقتضى الأمر، وذلك مقابل الحفاظ على كرسيّه، وهذا ما كان من حال العرب قبل الإسلام، فهم بين اتباع لأقواهم، وبين اتباع لقيصر الرّوم أو كسرى ملك الفرس([2])، وكلّ ذلك لا لشيء إلا بسبب الخوف من التّمرّد على واقعهم الأليم المذلّ.

إنّ اصحاب هذه العقليّة تراهم دائمي البحث عن سيد يدير شؤونهم ويوجههم إلى المسار الصحيح، وإن وجد أصحاب هذه العقليّة من يعتقهم ويحرّرهم من سلطته وتبعيّتهم له، لبحثوا عن سيّد آخر يتبعون له ويخضعون لأوامره، والغريب أنّ أصحاب هذه العقليّة العبوديّة، لا يرون صلاحاً لحياتهم دون ذلك، فقد تمّ انهاء الرقّ وفق معاهدة بين روسيا والدّولة العثمانيّة مع نهايات القرن التّاسع عشر، واليوم نسمع عن قبائل لا زالت تحيا حياة الرقّ، فموريتانيا اشترطت على أفراد إحدى القبائل التي هاجرت إلى مالي أن يدخلوا إلى موريتانيا أحراراً إذا أرادوا العودة إلى بلدهم الأم، وليس كما يرغبون هم أنفسهم، فهؤلاء يخشون امتلاك حريّتهم، لأنّ لذلك ثمنٌ، وهو المسؤوليّة عن أنفسهم، وهم غير راغبين بدفع ذلك الثّمن قلّ أم كثر.

---

[1] راجع ما قاله ابن الأثير في كتاب الكامل في التّاريخ الجزء الأول في أحوال العرب قبل الإسلام.

[2] فقد كان يسكن اليمن الغساسنة والمناذرة، فالغساسنة والوا البيزنطيين الروم، والمناذرة الفرس.

إنّ الحريّة أساسها امتلاك الإرادة والقدرة المناسبة على اتخاذ القرار وتنفيذه بالطّريقة التي يراها المقرّر، فامتلاك الإرادة يعني الحريّة التي لا يمكن التّنازل عنها أو المساومة عليها، ولا يمكن أيضاً القبول بأن يدفع ثمناً من الإرادة لهذه الحرية.

ومن هنا يمكن القول إنّ الثّمن الوحيد المرفوض دفعه لهذه الحرّيّة، هو الحرّيّة ذاتها، أو إحدى مقوّماتها الأساسيّة، لأنّ ذلك يعني الانتقال من عبوديّة إلى أخرى، وإلى دكتاتوريّة قد تكون أكثر إيلاماً وخسارة، فليس المطلوب تغيير دكتاتور بآخر، ولا نظام قمعي بنظام آخر أشدّ وأكثر قمعيّة، إنما هي الحريّة ذاتها ولا شيء غيرها، حرّيّة كاملة غير منقوصة ولا مبتورة، هذه الحرّيّة التي يبحث عنها شبابنا العربي، وثاروا من أجل نيلها، متمثّلة بالقدرة على التّعبير عن الرّأي بحرّيّة دون خوف من سطوة الجلاد وقضبان الحديد، حرّيّة في اختيار الممثّلين الحقيقيين لإرادتهم في السّلطات التّشريعيّة والتّنفيذيّة ، دون تزوير وتلاعب بالنّتائج، أو عقاب على الخيار، حرّيّة في الوصول إلى أعلى المراتب في إدارة شؤون البلاد، لا أن يكون الكرسيّ حكراً على الجالس عليه أو على عائلته، حرّيّة لا تهدر معها كرامة الإنسان ولا تمتهن ولا يتعدى فيها الواحد على الآخر، بما أنعم الله عليه من سلطة ومكانة، وكذلك عدالة تجعل من الجميع سواسية أمام القانون، متساوين في الواجبات والحقوق، لا أن يكون حالنا حال العرب أيام الجاهلية، الذين كانوا إذا سرق الشّريف فيهم عفوا عنه، وإذا سرق الوضيع أقاموا عليه الحد، عدالة توفّر حياة كريمة للمواطن، وتؤَمّن له

المسكن والملبس والمأكل والعلاج والتعليم، لا أن يذهب للعيش في قبور الأموات، ويأكل من حشائش الأرض.

في سبيل هذه الحرّيّة وهذه العدالة يمكن أن يدفع الإنسان الغالي والنفيس، أملاً في تحقيقها وسعياً إلى انتزاعها، فتصبح الرّوح رخيصة أمام ذلك.

ولسان الحال يقول كما قال الشّاعر:

فإما حياة تسرّ الصّديق ----------- وإما مماتٌ يغيظ العــدا

الباب الثامن

قبسٌ من نور

لعلّه من الأهميّة بمكان أن يتذكر الإنسان، إنّ الظّلام مهما تكرّر تعداده، فظلام زائد ظلام زائد ملايين الظّلام، لن يؤدّي إلى إنارة خيط واحد من نور، فعلى من أراد أن ينير صفحة الظّلام أن يشعل شمعة ترشده إلى سبيل الرّشاد، فتسدّد خطاه وتنير دربه، وتجلي عتمته وتجنّبه الزلل والوقوع في الحفر، لذلك كان لا بدّ من البحث عن هذه الشّمعة وسط الظّلمة الحالكة لصفحة أنظمتنا العربيّة الحاكمة، والتي سجّلت تاريخها منذ الكلمة الأولى بأحرفٍ من دمٍ وأقلامٍ من جمر وصفحات من نار، فذلّت وأذلّت وضلّت وأضلّت وتاهت في دياجير الظّلام، لا تخرج من ظلمة حتى تقع في ظلمة أشدّ وأحلك.

والحال كذلك، يطلّ علينا قبس النّور ليخبرنا أنّه لا زال في الوقت متّسع، وفي الإمكان مرتجع، هذا القبس الذي يضيء من فلسطين المحتلّة، الأرض التي جبل ترابها بدم الشّهداء، لكنّني كما العادة أحببت أن أضرب المثل لوقوف شباب وأطفال هذ البلاد الطّاهرة في وجه الظّلم والطّغيان ونصرة الحقّ، بما جُبل عليه شعبها من رفضٍ للظّلم والضّيم، ولو كان من ذوي القربى.

فالانتفاضة الأولى والثّانية في فلسطين، أتتا رافضتين كلّ الرّفض الواقع الأليم الّذي يعيشه الشّعب، وهما تسعيان لتغييره بكلّ ما تسطيع، ولذلك نرى الشّعب على مرّ العصور يقدم التّضحية تلو التضحية، ولقد قدّم كوكبةً من الشّهداء والجرحى والأسرى والمعوّقين، فيكون بذلك أول من كسر حاجز الخوف أمام أكبر ترسانة عسكريّة، فترى الفتى الصّغير يقف أمام دبابات العدو، ولم يكن سلاحه سوى الحجر، فالطّفل الشّهيد فارس فايق عودة من غزة، استشهد في الشّهر الثّاني لانتفاضة الأقصى عام ٢٠٠٠م، وهو يقذف دبّابة العدو بالحجارة أمامها مباشرة، وغيره الكثير من الأطفال والنّساء والشّيوخ، وهم يتحدّون وبصدور عارية لا يملكون سوى الإرادة والعزيمة لتغيير الواقع الأليم، لذلك نظر لهم العالم بنظرة إكبار وتقدير واحترام، واتّخذ منهم العالم العربي مثلاً يُحتذى به، فكان لهم السّبق في التّحدي، وكسر حاجز الخوف، ولذلك عندما خرجت المظاهرات في البلاد العربيّة، تجرّأ النّاس على الحكام ونعتوهم بالخيانة وطالبوهم بالوقوف مع الفلسطينيين، وطلبوا من حكامهم السّماح لهم بمساندة أهل فلسطين، وليُخَلّوا بينهم وبين المحتل، لذلك كانوا قدوة لهذه الشّعوب الثّائرة على الظّلم.

فالنّور قد اشرق في بلادنا العربيّة منذ بدء التّحرك الجماهيريّ ومواصلته ، والمتمثّل بعدم الرّضى بما عليه هذه الأنظمة، وحتى في البلاد التي حصل فيها ما يسمى بالتغيير، مثل العراق وتونس وليبيا واليمن ومصر، لم يرض الشّعب به، لمخالفته لما قاموا من أجل تغييره، وهو الإتيان بقيادات جديدة تعمل لمصلحة الوطن والمواطن.

إنّ الشّباب الذي قامر على فكرة التّغيير الجذريّ، لن يقبل ببدائل مصطنعة، أو مستنسخة، ولن ينطلي عليه هذا الزّيف والمسخ من القيادات، ولن يقفوا مكتوفي الأيدي اتجاه هذه الأحداث التي تجري في بلادنا العربيّة.

لذلك وقف أبناء ليبيا أمام القيادة الجديدة وطالبوا بمحاسبتهم بدعوى الفساد، منهم رئيس الوزراء الليبي علي زيدان، ومحمود رئيس وزراء ليبيا الجديد، وجبرين الذي هرب من ليبيا على إثر قضيّة فساد، ووجّه القضاء الليبي اتّهاماً إلى الرّئيس السّابق للمجلس الوطني مصطفى عبد الجليل في قضية اللّواء عبد الفتاح يونس، كما استدعي محمود جبريل للتحقيق معه أيضاً على نفس القضية، كما أنّ الشّعب في العراق يطالب المالكي بالتّنحي، وفي مصر يقفون لعبد الفتاح سعيد حسين خليل السيسي – السيسي- لترشحه لمنصب رئاسة مصر بعد محمد مرسي، ويرون فيه الرّجوع إلى عهد محمد حسني مبارك.

وبلاد الشّام ما زالت تصارع حُكّامها صراع المستميت، فلن تهدأ ولن تستكين قبل إزالة هذه الطّغمة الظّالمة المستبدّة، التي لم يشهد التّاريخ لها مثيلا في البطش والتّنكيل في أبنائها، فلم تدّخر نوعاً من صنوف الإيذاء إلا واستعملته ضدّ هذا الشّعب، من قتل وتمثيل بالجثث واغتصاب وأسلحة كيماوية، ولقد استعان على شعبه بجيش من إيران ومليشيات حزب الله الشّيعيين ليكون التّقتيل أشنع والاغتصاب أكثر. فعلى كل حال هي بلاد الملاحم والمحن.

هؤلاء الشّباب الثائر لن يقبلوا التغيير الصّوري، بل لا بدّ من التّغيير الحقيقيّ، لما يتصوّره هؤلاء الشّباب لواقع التّغيير. مع الأخذ بعين الاعتبار أنّهم لم يكن لهم موقف محدد، أو بعبارة أخرى، لم يكن لهم التّصور الواضح في التّغيير، إلا إنّهم يطالبون بتغيير، وهم ينظرون للقيادات الموجودة بعين المراقب والمترقب.

ربّما ما شهده الوطن العربيّ من ثورات وانتفاضات وحركات جماهريّة، يهدف إلى الوصول للحرّيّة والعدالة الاجتماعيّة، بما أعلنته هذه الجماهير من حرب على الفساد والفاسدين والمستبدين بالحكم والثّورة، وبما قرّرته من رفض لكلّ أشكال الخنوع والتّبعيّة في سبيل البحث عن الحرية والكرامة والرّقي بالإنسان العربيّ ليصبح صانعاً للحدث، مؤثراً في نتائجه، بدل لعب دور المشارك والمتلقّي العاجز عن التّأثير فيه، ولا زالت تسعى في هذا الطّريق، والذي أرى أنه بدأ يقترب من الوصول إلى نقطة النّهاية، لما قدّمته من شهداء وجرحى ومعتقلين، فهذه الطّريق شاقّة ومعبّدة بكل أصناف الموت والتّنكيل، والمُسيّجة بسياج البطش والطّغيان، والمسوّر بأسوار التّعذيب والتّرهيب، وأساليب الإذلال والإخضاع بأيادٍ فقدت إنسانيّتها ومشاعرها، فأضحت أدوات وآلات تتحرّك وفق رغبة أسيادها، بما يدرُّ عليهم من منافع وامتيازات ورتب ومراتب، عمت أبصارهم، وأماتت ضمائرهم، وجعلت منهم وحوشاً في صورة بشر، وهم ذوو القربى، ومن بني جلدتنا.

إنّ التّضحيات والآلام والدّماء التي قدّمتها الأمة على مذابح الحرّيّة، تستحقّ أن تصل إلى غايتها، وأن ترى ما كان يوماً حلماً، تراه واقعاً متجسّداً أمام أعينها، لتتذوّق حلاوة الحرّيّة بعد أن تجرّعت لعقود مرارة التّبعية والخنوع، ولتؤمّن للأجيال القادمة حياة، يكون فيها المواطن أساس المجتمع، يبني مؤسساته، ويشارك في إدارته، ويصل فيه إلى أعلى المراتب، وأن يستطيع المواطن قول ما شاء دون أن يخشى قبضة النّظام، كلنا يرجو هذا اليوم الذي نشعر فيه أنّ صوت المواطن العربيّ سيصنع التغيير، وأنّ نسبة ٩٩% في الانتخابات قد ذهبت إلى غير رجعة، وانّ التّصويت لمرشح واحد في الانتخابات ما عاد قائماً، وأن ّالتّوريث للحكم لم يعد له مكانا في الزمن القادم.

وكلّ ذلك مرهونٌ بالحيلولة دون إعادة بناء حاجز الخوف الذي كُسر، لأنّ هدمه من جديد يكلّفنا أضعاف الثّمن الذي قدّمناه، من الدماء والآهات على مدار قرن من الزّمان، فهذا النّضال لاسترداد حريّتنا وكرامتنا لم يبدأ يوم البو عزيزي بإحراق نفسه، إنما هو قبل ذلك بكثير، لقد بدأ مع أول مظلوم وقع عليه ظلم النّظام، ومع أوّل آه خرجت من سجين، وأوّل ضربة سوط على ظهره، ومع أوّل روحٍ صعدت إلى بارئها تشكي ظُلّامها، وتعلن ذاتها شهيدة على مذابح الحرّيّة والكرامة، منذ تلك اللحظات بدأ النّضال، ولم ينته بعد حتى يضع الظّلم والطّغيان أوزاره.

فالثّورات التي انطلقت في وطننا العربيّ عادت لتشعل شعلة الحرّيّة، الّتي أطفأها الظّلم والطّغيان والاستبداد والفساد، والتي لا زالت تشقّ طريقها الطّويل والمحتاج إلى المتابعة والاستمرار، والتّوسّع في المساحة، والمشاركين بغية الوصول إلى الحرّيّة الحقيقيّة، ولا يجوز أن نحجر عقولنا أمام نظريّة المؤامرة، التي استملكت البعض، والتي من شأنها تقويض جهود السّاعين إلى الخلاص من العبوديّة والذّل والظّلم.

فما شهده الوطن العربيّ لم يكن مؤامرة خطّط لها الغرب، وسعى إلى تنفيذها، وإن حاول جاهداً احتواءها واستغلالها، والتحكم بها وصولاً إلى تسخير نتائجها لما يخدم أهدافه ومصالحه، وهذا أمرٌ طبيعيّ في عالم السّياسة والعلاقات الدّوليّة، ولكن لا يجوز تحت هذا الوهم المتمثّل بنظريّة المؤامرة، والتي أصبح البعض يعتقد أنّ كلّ سكونٍ وحركةٍ في العالم مؤامرة، وأن المتآمرين يقفون خلفَ باب بيته، يستعدّون للانقضاض عليه، فلا يجوز تحت هذا الوهم أن نقف مكتوفي الأيدي، لا نحرّك ساكناً، خوفاً من أنّ الذي يحرّكنا المؤامرة، بل علينا أن نسعى لنيل الحرّيّة داخلنا أولاً، ومن ثمّ نيل حرّيّتنا من الغرب وسيطرته، من خلال حلول وعقول وأياد عربيّة، فالوطن العربي لا تنقصه الأموال ولا الطّاقات، إنّما ينقصه الحرّيّة، والّتي قرّر شبابنا استعادتها بكلّ ما أوتوا من قوة، ومهما بلغ الثّمن.

إنّ كلّ هذه المعطيات تجعلنا نرى قبس النّور الذي بزغ في بلادنا العربية، وبدأت علاماته تلوح بالأفق ومن فوق الغمام، لذلك لا بدّ من بزوغ

الفجر من جديد، لتشرق شمس الحرّيّة على رُبى بلادنا العربيّة. وليتربع العدل على عرش هذه البلاد، ويسود فيها من يستحقّون أن يكون منهم القادة التي تنتظرهم الأمة، وليرفعوا شعبهم وأمتهم فوق هامات الأمم والشعوب.

عندها تكون الأمّة قد جنت الثّمار لهذه الثّورات العربيّة وأشرق النور من جديد. وهذا هو ثّمر هذه الحرّيّة التي ترنو لها الأمّة.

نبذة عن بعض مواقع التّواصل الاجتماعيّ

الفيس بوك

إنّ أوّل من أسّس هذه المواقع، ومنها الفيس بوك، هو شاب أمريكي يدعى {مارك زوكر بيرج}، وهو لم يتجاوز بعد من العمر ٢٠عاماً، حيث كان يدرس في جامعة هارفارد، هناك وضع اللّبنة الأولى لفكرة المواقع، بإنشاء شبكة اتصال داخليّة بين طلبة الجامعة، فلاقى شعبيّة واسعة بين الطّلاب، مما شجّعه على إدخال جامعة بوسطن في المشروع في المرحلة الأولى، ومن ثمّ العديد من المدارس والمعاهد الأخرى، وفي شهر شباط من العام ٢٠٠٤م أطلق مارك موقعاً على الإنترنت – بعد حصوله على براءة اختراع- بالتّعاون مع طالب متخصّص في علوم الحاسوب (انداو ماكولم)، وزميلاه (موسكو فيز) و(كريس هوجز)، وفي صيف ذات العام، انتقل أربعتهم إلى كاليفورنيا، حيث التقى مارك هناك بالمستثمر (بيتر تايل) ليؤسّسوا معاً أوّل شركة، متخذة من (بالو ألتو بكاليفورنيا) مقرّاً لهم، وأخذت تنمو هذه الشّركة، إلى أن وصل حجم استثماراتها حتى نيسان ٢٠٠٨ إلى ١٠٠ مليون دولار([١])، وقد ذكر (مارك زوكر بيرج) في لقاء أذيع على العربيّة، ضمن برنامج عن موقع الفيس بوك، أنّه قد عُرِض عليه بيع المشروع لصالح شركة مايكرو سفت مقابل ١٥مليون دولار، مؤكّداً أنّ المبلغ كان مغرياً جدّاً، بيد أنّه قرّر رفض ذلك العرض على أمل النّجاح، وهو

---

[١] من مقال المجلة الالكترونية العربية على (فيس بوك)، إعداد إبراهيم فرغلي /مجلة العربي عدد رقم٥٩٣ ابريل.

ما أثبتت صحتّه الأيام([1])، لقد لاقى موقع الفيس بوك الكثير من الرّواج، حيث صُنّف الموقع الأوّل في مجال مواقع التّواصل الاجتماعيّ، تقول سهى الأعرج – مشرفة أكاديمية جامعة القدس المفتوحة- ((إنّ مواقع التّواصل الاجتماعي حظيت بانتشار كبير على صعيد العالم، وأصبحت الأكثر استخداماً، وزيارة للمستخدمين على الشّبكة العنكبوتيّة -الإنترنت – بما في ذلك الفيس بوك وماي سبيس وتويتر وهاف فايف وغوغل بلس، وغيرها من المواقع التي تجاوز عدد المستخدمين في بعضها على ٥٠٠مليون مستخدم))([2])، وتضيف ((أظهرت الإحصائيات الخاصّة بموقع الفيس بوك على سبيل المثال: أنّه في عام ٢٠١١م أمضى المستخدمون لهذا الموقع أكثر من ٧٠٠بليون دقيقة في الشّهر، وإنّ أكثر من٥٠% من المستخدمين يدخلون الموقع يومياً))([3])، إنّ هذه الأرقام تثبت أنّ هذه المواقع كان لها الدّور الرّئيس في تحريك الثّورات، حيث أنّها وفّرت القوّة الدّاعمة لها، من خلال توفير عنصر التّواصل والتّعبئة، وبرصد التّحركات الجماهيريّة بالعناصر، وتوفير المعلومات اللّازمة عن أماكن ومواعيد هذه التّحركات، يقول (ريتشارد ستولمان) {إنّ إتاحة الحصول على المعلومات من دون عائق عن طريق الإنترنت من شأنه أن يزيد من حرّيّة الأفراد والجماعات في رسم مستقبلهم المشترك بما يحقق الخير للجميع} وسمّي هذا التوجه بـــ(البرمجيات المجانية كحركة اجتماعية}، مما يعني أنّ الحاسوب والصّناعات المعلوماتية أصبحت (قوّة بنّاءة) تتولّى تشكيل حركات جديدة،

---

[1] قناة العربيّة الإخباريّة .

[2]. من مقال ستلبيان مواقع التواصل الاجتماعي وأثرها على حياتنا / سهى الأعرج/ القدس الرقمي (ملحق) السنة الأولى ٢٠١٢/٣/٣٠م المصدر السابق.

[3] المصدر السابق

ذات قوّة وفاعليّة في تغيير الواقع الذي تعاني منه كثيراً من الشّعوب، وتعمل على خلق عالم جديد يسوده العدل والتّفاهم والتّسامح([1])، وقد رافق ظهور مواقع التّواصل الاجتماعي ظهور المدونات([2])، والّتي بدأت تظهر مع نهاية التّسعينيات، وبداية الألفية الثّالثة، حيث اعتبرها الكثير من الشّباب نافذة للتّعبير عن آرائهم بعيداً عن مقصّ الرّقيب، أو عن تَوَجُّهات الرّسائل الإعلاميّة اليوميّة المختلفة، والتي غالباً ما كانت معارضة لرغبة المدوّن، إما بسب الرّقابة، أو بسبب السّياسات التّحريريّة لهذه الوسائل، فوجد هؤلاء ضالّتهم من خلال هذه المدونات، والتي أخذت تنتشر بسرعة فائقة حيث قدّرت شركة (Tec notate) الأمريكية أنّ أعداد المدوّنات يتضاعف مرّة كلّ خمسة شهور([3]).

فقد أخذ كلّ مدوّن أو مدوّنة بكتابة آرائه الخاصّة، حول موضوع أو فكرة ما، وأصبح ذلك يسمّى فيما بينهم (التغريدة)، وقد يكون ذلك بالاسم المباشر أو باسم مستعار، أولت العديد من المواقع العربية أهميّة خاصّة لهذه المدوّنات، مثل بلوجر، مكتوب، جيران، وودر برس، فيما أَقدَمَ موقع (إيلاف) على تشكيل جريدة فريدة مرادفة من خلال المدوّنات التي رعاها، وأطلق على التّجربة {صحيفة يحرّرها المدوّنة}، والجدير بالذّكر أنّ العديد من

---

[1] كتاب soft war –free الذي صدر عام ٢٠٠٥م /ريتشارد ستولمان/ مجلة العربي عدد (٥٩٣) ابريل من عام ٢٠٠٨م.

[2] المدوّنة هي:– تطبيق على الإنترنت تظهر بشكل صفحة تعرض المواد الأكثر حداثة، وتقوم أوتوماتيكيا بعمل المواد الأخرى على الأرشيف، هذه المواد عبارة عن تدوين المواضيع بعناوين في الأرشيف كلّ منها عنوان إلكتروني ثابت (UAL) يضمن الرجوع لها.

[3] ثورة المدوّنات... شبان يبحثون عن حريّتهم في فضاء الإنترنت/ القدس العربي (ملحق) السنة الأولى العدد٣.

المدوّنين والمدوّنات تعرضوا للاعتقال والملاحقة، بسبب آرائهم الّتي رأى النّظام فيها تهديدا لأمنه، أو مخالفة في الآداب أو مسيئة للأديان، وفيها مسّ برموز النّظام وغيرها الكثير من المبرّرات التي يسوقها النّظام وأجهزته القمعية، من أجل محاربة هذه الظّاهرة التي أقلقتهم.

وظاهرة أخرى رافقت ظهور مواقع التواصل الاجتماعي وهي العوالم الافتراضية، وهي تطوّرت عبر ثلاثة أجيال تكنولوجيّة، الأوّل كان الحصول على معلومات للقراءة فقط عبر صفحات (هوتميل)، ثابتة لا يمكن تغيير محتواها من قبل المتصفح، الثاني كان التفاعل، أي القراءة والكتابة تسمح صفحاته بإضافة أو تعديل المحتويات عبر المتصفح، والمدوّنات والموسوعات والمجتمعات الالكترونية، والثّالث هو الانغماس في الإنترنت الثّلاثيّة الأبعاد، أي العيش بعوالم افتراضية، حيث القراءة والكتابة والتّنفيذ، فعلى سبيل المثال يمكن للمتصفح أن يتعلم شعائر الحج أو العمرة، وكأنّه ذهب إلى المملكة العربيّة السعوديّة، ويرى كلّ كبيرة وصغيرة وهو جالس مكانه، فكلّ ما عليه فعله هو ارتداء نظارة خاصّة أو خوذة أمام الحاسوب([1]).

---

[1] العوالم الافتراضية والجيل الثّالث من الويب في التعليم / د. جميل اطميزي / القدس الرقمي (ملحق) السنة الأولى العدد٣ / آذار ٢٠١٢م.

نبذة عن تويتر

جاك دورسي | Jack Dorsey

مبرمج أمريكي ورجل أعمال ، يعرف كونه مبتكر موقع تويتر

راودت مبرمج الكمبيوتر جاك دورسي فكرة إنشاء موقع من شأنه أن يجمع بين سهولة الرّسائل الفوريّة والبساطة. وفي غضون أسبوعين، أسّس دورسي موقعا بسيطا أسماه "تويتر"، مكّن مستخدميه من نشر رسائل قصيرة على الفور لا تتجاوز ١٤٠ حرفا أو أقل، وعرفت باسم "تويت" أو التغريدة.

تويتر بالإنجليزية (Twitter: هو موقع شبكات اجتماعيّة يقدّم خدمة تدوين مصغّر والّتي تسمح لمستخدميه بإرسال» تغريدات «عن حالتهم بحد أقصى ١٤٠ حرف للرّسالة الواحدة. وذلك مباشرة عن طريق موقع تويتر أو عن طريق إرسال رسالة نصّيّة قصيرة SMS ، أو برامج المحادثة الفورية، أو التطبيقات التي يقدّمها المطوّرون مثل الفيس بوك TwitBirdو Twitterrific و Twhirl و.twitterfox

اللّغات المستخدمة هي: الإنجليزيّة، الهنديّة، اليابانيّة، العبريّة، الأرديّة، الإسبانيّة، الفرنسيّة، الإيطاليّة، الألمانيّة، التركيّة، الكوريّة، الهولنديّة، الروسيّة، البرتغاليّة، الأندنوسيّة، العربيّة.

وتظهر تلك التحديثات في صفحة المستخدم ، ويمكن للأصدقاء قراءتها مباشرة من صفحتهم الرّئيسيّة، أو زيارة ملف المستخدم الشّخصي، وكذلك يمكن استقبال الردود والتحديثات عن طريق البريد الإلكتروني،

وخلاصة الأحداث RSS Kوعن طريق الرّسائل النّصيّة القصيرة SMS ، وذلك باستخدام أربعة أرقام خدمية، تعمل في الولايات المتحدة وكندا والهند بالإضافة للرقم الدولي والذي يمكن لجميع المستخدمين حول العالم الإرسال إليه في المملكة المتّحدة.

أصبح موقع تويتر متوفر باللّغة العربيّة منذ مارس ٢٠١٢، ويُعرب «تغريدات» جمع «تغريدة.

نشأة الموقع: ظهر الموقع في أوائل عام ٢٠٠٦ كمشروع تطوير بحثي أجرته شركة Odeo الأميركية في مدينة سان فرانسيسكو، وبعد ذلك أطلقته الشّركة رسمياً للمستخدمين بشكلٍ عام في أكتوبر ٢٠٠٦. وبعد ذلك بدأ الموقع في الانتشار كخدمة جديدة على السّاحة في عام ٢٠٠٧، من حيث تقديم التّدوينات المصغّرة، وفي أبريل ٢٠٠٧ قامت شركة Odeo بفصل الخدمة عن الشّركة، وتكوين شركة جديدة باسم .Twitter بدءاً من ديسمبر ٢٠٠٩، فإنّ جوجل سوف يقوم بعرض نتائج بحث فوريّة في محرك بحث جوجل لمدخلات المستخدمين الجديدة في تويتر.

يمكن للمستخدمين الاشتراك في تويتر بشكل مباشر عن طريق الصّفحة الرّئيسيّة للموقع، وبذلك يتكوّن لديهم ملف شخصيّ باسم الحساب، حيث تظهر آخر التّحديثات بترتيب زمني. تدور التّحديثات حول السّؤال "ماذا تفعل الآن"?What are you doing" " والّتي لا تتجاوز ١٤٠ حرف. وبعد أن يقوم المستخدم بتحديث حالته، ترسل التّحديثات إلى الأصدقاء.

لم يتوقف الموقع عند اللّغة الإنجليزيّة فقط، ولكن في أبريل ٢٠٠٨ قام الموقع بإطلاق نسخته اليابانيّة، وذلك لكثرة عدد المستخدمين من اليابان، ونشاطهم البارز على الموقع، ولقيت النّسخة اليابانيّة استحسان المستخدمين في اليابان، وتفوّقت بشكل أكبر على النسخة الإنجليزيّة، حيث أصبح في الإمكان وضع إعلانات في النّسخة اليابانيّة، على عكس النّسخة الإنجليزيّة التي لا تدعم نظام الإعلانات حتى الآن.

وقد قامت تويتر مؤخّرا بإطلاق زرّها الخاص بالتّشارك عبر شبكتها الاجتماعيّة، حيث كانت هذه الخدمة تقدم من شركات أخرى أمثال Tweetmemeو .Topsy

الانطباعات والصعوبات : لاقى تويتر استحسان الملايين من المستخدمين، والعديد من الشّركات العاملة في مجال الإعلام والإنترنت ، وبالرغم من تكوين خدمات أخرى منافسة لتويتر، إلا أنّ المستخدمين قد ارتبطوا بعلاقة وثيقة مع تويتر ترغمهم على استخدامه. إلّا أنّ الموقع تعرّض للكثير من الصّعوبات في النّصف الأوّل من عام ٢٠٠٨، بزيادة فترات توقّف الموقع عن العمل لعدّة أسباب، إمّا لزيادة عدد المستخدمين على الموقع، أو بسبب أعطال في خوادم الموقع أو قواعد البيانات ، ممّا اضّطر الكثيرين إلى البحث عن بديل لتويتر يلائم تلبية رغباتهم.

تقنية الاستخدام: تمّ بناء الموقع باستخدام لغة Ruby وباستخدام مكتبتها الشهيرة .Ruby on Rails ويمكن للمطورين استخدام واجهة

برمجة التّطبيقات لدمج وتطوير تطبيقات يتم استخدامها بين المواقع والشبكات الاجتماعيّة وبين تويتر. وفي مايو ٢٠٠٨ قام الموقع بتقديم خدمة Twitter Statusأو حالة تويتر وذلك لمتابعة أي مشكلة تحدث مع الموقع وتبليغ المستخدمين بوقت عودة الموقع للعمل إذا توقف.http://status.twitter.com

السعوديون ودول الخليج والتويتر: أفادت دراسة صادرة عن شركة "جلوبال ويب إنديكس" بأنّ السّعوديين سجّلوا أعلى نسبة نمو عالميا من حيث عدد مستخدمي موقع تويتر على شبكة الانترنت. وجاء في التّقرير أنّ نسبة ٥١% من روّاد الشّبكة من السّعوديين يترددون بانتظام على استخدام موقع التّواصل الاجتماعي تويتر. واحتلّت دولة الامارات المركز الثّالث بنسبة ٣٤.% ([١])

وهناك مواقع أخرى ولكن اكتفيت بأشهرها.

[١] ويكيبيديا الموسوعة الحرة على النت

نبذة عن يوتيوب

تأسّس موقع يوتيوب على يد تشاد هيرلي وستيف تشين وجاود كريم، وكانوا موظّفين سابقين في شركة باي بال، وقبل ذلك درس هيرلي التّصميم في جامعة إنديانا بولاية بنسيلفينيا، بينما درس تشن وكريم علوم الحاسوب في جامعة إيلينوي. أصبح النّطاق YouTube.com نشطاً في 15 فبراير2005 ، ومن ثمّ تمّ العمل على تصميم الموقع لبضع أشهر. افتتح الموقع كتجربة في مايو ٢٠٠٥، وافتتح رسمياً بعد ستّة أشهر.

أول فيديو على اليوتيوب :

يعدّ الفيديو المرفوع من قبل جاود كريم بعنوان (أنا في حديقة الحيوان) بالإنجليزية (Me at the zoo):أوّل فيديو يتمّ رفعه على موقع اليوتيوب، وكان بتاريخ ٢٣ إبريل ٢٠٠٥، وتبلغ مدته ١٨ ثانية، أنا في حديقة الحيوان على يوتيوب، وبحسب موقع أليكسا، يوتيوب هو حالياً ثالث أكثر المواقع شعبية في العالم بعد فيس بوك وجوجل ' في يوليو ٢٠٠٦، صرّح المسؤولون عن الموقع بأنّ عدد مشاهدة الأفلام من قبل الزّوار ككل يصل إلى ١٠٠ مليون يومياً.

في شهر يناير ٢٠٠٨ فقط، ٧٩ مليون مستخدم شاهد أكثر من ٣ مليارات فيلم. في أغسطس ٢٠٠٦، ذكرت وول ستريت جورنال بأنّ الموقع يستضيف ٦.١ مليون فيلم ، بسعة ٦٠٠ تيرابايت. وفي ٢٠٠٧، استهلك الموقع قدراً من حجم تدفق البيانات (bandwidth) مماثلا

لاستهلاك العالم لجميع مواقع الإنترنت في عام ٢٠٠٠. يتم رفع ١٣ ساعة تقريباً من الأفلام في كل دقيقة، في مارس ٢٠٠٨، قدّرت كلفة الموقع بحوالي مليون دولار أمريكي يومياً.

التأثير الاجتماعي: بعد إطلاق يوتيوب أصبح من السّهل نشر الأفلام ليشاهدها المستخدمون حول العالم. وأصبح العديد من الهواة مثل الكوميديين والسياسيين والموسيقيين الذين ينشرون مقاطع مصورة بشكل مستمر، مثل بات كوندل (en) ، ويعتقد أنّ فيديو (baby بيبي) بالإنجليزيّة للمغني جاستن بيبر هو أكثر الفيديوهات مشاهدة على موقع اليوتيوب، بعدد يزيد عن ٨٠٠ مليون شخص، الاّ أنّ فيديو المغني الكوري الجنوبي "(ساي جانجام ستايل style PSY gangam)"بالإنجليزيّة :تجاوزه يوم ٢٤ نوفمبر ٢٠١٢ بحصوله على مليار مشاهدة رابط الفيديو.

شروط الخدمة: لا يسمح في يوتيوب وضع أفلام لها حقوق نشر محفوظة من دون إذن صاحب العمل. كما لا يسمح بوضع الأفلام الإباحية، أو الأفلام التي تسيء لشخصيّات معيّنة، أو الأفلام الفاضحة، أو الإعلانات التّجاريّة، أو الأفلام التي تشجّع على الإجرام.

المميّزات ونوعيّة ملفّات الفيديو: يستخدم يوتيوب تقنية أدوبي فلاش لعرض الأفلام. يتطلّب مشاهدة الأفلام تحميل البرنامج المشغّل لفلاش، رغم أنّ الشّركة تذكر بأنّ البرنامج موجود حالياً في حوالي ٩٠% من أجهزة الحاسوب في العالم التي تستخدم لتصفح الإنترنت. تحوّل

يوتيوب الأفلام المرسلة إليها إلى امتداد FLV أو فلاش فيديو. لا يمكن تنزيل الفيلم مباشرة من الموقع، ولكن يمكن استخدام برامج أو وصلات خارجيّة لذلك. يمكن تشغيل ملفات FLV في الكمبيوتر عن طريق عدّة برامج منها جوم بلاير، وجناش، وVLC، وغيرها. كما أتاح الموقع نسخة HTML5من المشغل بصيغة فيديو وِب إم وصوت فربس للمتصفّحات التي تدعم تلك التّقنيات.

الملفّات المرسلة ليوتيوب: يجب أن لا يزيد طولها عن ١٥ دقيقة للمستخدمين الجدد ، ولكن يمكن ان تزيد المدة للمستخدمين الاخرين، وأن لا يزيد حجمها على ١ جيجابايت (1024 ميجابايت). يمكن رفع الملفّات ذات الامتدادات التاليةWMV :، وAVI ، وMOV ، وMPEG ، وMP4 ، و ٣ GP.يمكن رفع الأفلام ذات الامتداد ٣ GP من الهاتف النّقال مباشرة عن طريق الموقع الخاص بالهواتف وهو."m.youtube.com"

الصّوت: تحتوي الملفات المرفوعة في يوتيوب على صوتيّات بصيغة .MP3 وبشكل افتراضيّ يكون نظام الصّوت فردي(mono) ، مع معدل ٦٤ كيلوبت للثّانية، مع تخفيض الإشارة الصّوتية (sampling) إلى ٢٢٠٥٠ هرتز.

جودة الأفلام: أبعاد الأفلام بشكل افتراضيّ تكون ٣٢٠×٢٤٠ بكسل، وتستخدم مرماز (codec) سور نسون سبارك .H.263 معدّل البث لإشارة الفيديو هو حوالي ٣١٤ كيلو بت لكلّ

ثانية، أما معدّل الصّور أو الإطار (frame rate) فيعتمد على الملف المرفوع، وفي مارس ٢٠٠٨ أطلق الموقع خاصيّة جديدة تسمح برفع ملفات بأفضل جودة، ويتم عرضها بأبعاد ٤٨٠ × ٣٦٠ بكسل. و أطلقت جودات أخرى وهي ٧٢٠ p و ١٠٨٠ p ، كما تمّ إضافة تقنية عالية الوضوح HD ، وتمّ إضافة تقنية 3D اي مشاهدة المقاطع بالتّقنية الثّلاثيّة الابعاد ، كما تمّ اضافة تقنية٤ k في عام ٢٠١٤ ٦ يناير.

التوطين: في ١٩ يوليو ٢٠٠٧، كان رئيس جوجل إيريك سميت في باريس لإطلاق نظام التوطين الجديد. واجهة الموقع متاحة بنسخ موطّنه في ٤٢ دولة، وإقليم واحد (هونج كونج)، ونسخة عالمية.([١])

---

[١] ويكيبيديا الموسوعة الحرة على النت

الخاتمة

الحمد لله ربّ العالمين، حمد الشّاكرين على آلائه العظيمة ، ونعمائه الجسيمة، الجليل في عظمته ، المهاب بسطوته وقوته ، ناصر المظلومين وقاهر الجبارين والمتكبرين.

والصّلاة والسّلام على أفضل الخلق سيدنا محمد بن عبد الله، أتم صلاة وسلام، وعلى آله الكرام وأصحابه الأخيار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

لقد أنعم عليّ الله وتكرّم ، وكتبت هذا الكتاب من وراء القضبان، فإن أصبت فمن الله، وإن أخطأت فمني ومن الشّيطان.

تمّ بحمد الله.

المؤلف

شادي غالب محمد ياسين أبو شخدم الحسيني

٢٠١٤/٢/٢٣م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

السيرة الذاتية للأسير

شادي غالب محمد ياسين أبو شخدم الحسيني

ولد في مدينة الخليل فلسطين في تاريخ ١٩٨٠/٨/١٦م

درس الابتدائية : مدرسة ابن المقفع

درس الاعدادية : مدرسة حكمت المحتسب للبنين

درس الثانوية : في مدرسة الحسين بن علي

درس للصف الحادي عشر وترك الدراسة لظروف خاصة .

عمل في استوديو سنجام للتصوير لصاحبه عايش دوفش وتعلم التصوير

ثم انخرط في العمل الاعلامي كصحفي ومصور ومقدم برامج لتلفزيون المجد في الخليل .

وكان يعمل كمراسل لصابرين للإعلام في غزة .

اعتقل في بداية الانتفاضة الثانية في تاريخ ٢٠٠٢/٤/١٣م

اتهم بالانتماء لحركة فتح - كتائب شهداء الأقصى - وتخطيط وتنفيذ عملية استشهادية في محنه يودا في القدس وهي عملية الشهيدة عندليب طقاطقه وحكم عليه بست مؤبدات وعشرون عاما .

وعلى اثرها هدم منزل والده في تاريخ ٢٢/ ٢٠٠٣/١٠م.

نشاطاته داخل السجن :

عوقب في داخل السجن عدة مرات وفي الكثير من الأحيان يقوم اليهود بوضعه في العزل الانفرادي – الزنزانة.

حاول تقديم الثانوية العامة عدة مرات وهو في السجن ، وكان في كل عام يتقدم فيه للإمتحان المذكور، يمنعه اليهود وذلك بحرمانه من تقديم مادة أو أكثر وفي هذا العام قدم الامتحان وحاصل على شهادة الثانوية العامة وهو في سجن ريمون الصحراوي وحصل على معدل ٧١.٢ في العلوم الإنسانية .

وهو يدرس في داخل السجن ويحاول دخول احدى الجامعات.

درس بعض العلوم الشرعية من فقه واصوله وتعلم احكام التجويد وهو حفظ بعض أجزاء من المصحف الشريف غيبا ويحاول حفظه كاملا،

درس اللغة العربية واتقنها وتعلم العبرية واتقنها وتعلم الانجليزية ويدرس الفرنسية ويدرس الكثير من المواضيع .

ويخطب خطبة الجمعة في السجن ويقوم بإعطاء محاضرات ودورات في الكثير من المجالات.

ولقد كتب كتابه هذا وهو في داخل السجن وما زال يقبع خلف القضبان .

هذه بعض الأبيات من قصيدة ملوك الذل من ديوان المشتاق ، إهداء لهذا الكتاب ومؤلفه شادي.

من الأخ الشاعر والصديق الأسير وائل حجازي أبو شخدم الحسيني.

ملـــوك الــــــذل

حَتَىْ الْمَجْدُ أهَلُ الضَّادِ مَا عُدْتُ أَصْبِرُ

فَإِنْ هَمَّتِ الأَفْرَاحُ فَالحُزْنُ حَاضِرُ

لَقَدْ حُــطَّ غَيْـــمٌ لا يُـــزَالُ سَوَادُهُ

وَغَمَّتْ عُيُوْنٌ كَـــيْ تَنَامَ وَتُنْحَـــرُ

فَشَدَّ الشُّعُوْبِ النَّائِمَـــاتُ بِلَيْلِهَـــا

وَمَا عَادَ فِيْهِمْ مِنْ رَشِيْدٍ وَمَاكِـــر

فَإنْ تَرْقُبُوْا فينا وَلِيْـــدا يُحَـــارِبُ

فَبِئْسَ وَلِيْـــدٍ لِلْـــبَغَايَـــا يُنَاظِـــرُ

فَقَـــدْ أمْسَيَنَّ الْشَّرُّ فِيْنَـــا نَـــوَازِلُ

فَمَنْ يَهْتِكِ الأعْرَاْضَ مَجْداً يُفَاخِرُ

فَـــأُفٍ مُلُوْكَ الذَّلِ بِئْسَ المَـــراتِبُ

وَبِئْسَ مَلِيْـــكٍ لِلْـــرَعِيَّـــةِ يَهْجُـــد

أقول لكل من تمادى على شعبهِ ، وأبناء أمّته من حُكام وأعوانٍ لهم من مرتزقة أو منتفعين ومتسلقين وفرحوا أثناء ذلك العمل الخسيس.

لا تفرحوا، وابشروا بالخزي والعار في الدنيا والآخرة.

الذلّ والعار لكلّ خائن خوار. سوف تُذكرون في التّاريخ.

ولكن في مزابل التاريخ.

وأخيراً .... أقول لهم كما قال الشاعر:

لا تأسفنّ على غــدر الزمان فلطالما رقصت على جثث الأسودِ كلابُ

لا تحسبن برقصها تعلو على أسيادها تبقى الأسود أسود والكلاب كلاب



المصادر والمراجع

طبائع الاستبداد ومصانع الاستعباد – عبد الرحمن الكواكبي

اقتصادنا – محمد باقر الصدر

الموسوعة السّياسية – عبد الوهاب الكيالي

كنز المعلومات – محمد عبد العزيز الهلاوي

منجد الأعلام

جريدة القدس

قناة العربية الفضائية

قناة فلسطين الفضائية

مجلة العربي

الإنترنت للقيل من المواضيع – وهذا قام به من صف الكتاب وطبعه